الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٥ — ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — أول فبراير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

رجل للبحر

للكاتب القصصى هـ. أ. مانهود

بقلم احمد حسن الزيات

عثرت فجأة على الجوسق [1] كما يعثر متصفح الكتاب على صورة ما كان يتوقعها. وكان هذا المنزل الصغير قائماً فى صدر الخليج كأنه جوهرة غليظة الصقل رُكبت على هلال مِشْبك. فإذا أردت أن تصل إليه سرت على الرملة أو اتخذت طريقاً ضيقة تسلسَلَ على حفافيْها غلان من وحشى النبات، تنشعب قبل أن تبلغه إلى شعبتين تسيران مع الحوائط المتداعية للحديقة، ثم تجتمعان من وراء فتصيران مواطئ أقدام تتنقل حتى تدخل المنزل، فلا يسمك وأنت ترى هذا الطريق المطموس إلا أن تظن أن الذين مروا بهذا المنزل — على ندرتهم — لم يحسوا الرغبة أو لم يجدوا الجرأة ليقتحموا بابه

كان على سطحه ثلاث مداخن شواهق شقت السقف فبدا بها كأنه الكرسى المقلوب، انفتل على جنباتها خيوط دقيقة من الدخان، وعلق بها ماتها سيقان طويلة من القش، يحركها مرُّ النسيم فترقص على إيقاع متخيَّل. وكان ذلك السطح المصفح بالأردواز قد اصطبغ بصبغة الذهب الكابى فشابه لونه لون التفاح على أشجاره العارشة فوق الحائط الخلقى. وفى الحديقة اعتصم بالجدران الواطئة المنهارة أدغال شواجن من عنب الكشمش [1]؛ وعلى صدع من صدوعها قامت شجرة وحيدة من شقائق النعمان كانت تركع وتقوم فى صلاة متتابعة ضائعة تحت عصف الريح المحملة بذرّات الرمل.

(١) الجوسق هو البيت الريفي المنفرد

(١) هو العنب البناتى

لا يستطيع واصف هذا الجوسق أن يقول إنه ينظر إلى البحر ؛ إنما كان يلاحظه عن عُرض ملاحظة الحامي يعتقد أنه فى أمن من ارتفاع المد مهما طغى . وكان على العشب الذابل الحائل زورق أُخرج من الماء فنسجت العناكب على جوانحه غزلها الواهن الهش ، وقد نُقش على جانبيه بحروف لا تكاد تُقرأ :

(ميكائيل سوان — بورت آن)

وعلى مقربة منه شِباك صيد قد نُشرت على أربعة أوتاد فى الرمل على شكل المدرج ، تدور بينها فَراشتان أمام الذباب الداهل الغافى ، وألفافٌ من النبات تزدهر تحت النافذة وتنظر خُلسة إلى البحر ، وكومة من الأوراق الصفر قد ارتفعت إلى عماد الحائط ، ومجداف غاص منحرفا فى الرمل متجها إلى الجوسق ، وقد كُتب على صفحته بالحديد المحمى كلمة The كأنها الرمز المهدَّد

دفعت باب الحاجز فتنبه الحارس ، وهو قِط أصفر اللون قد رقد مستديراً فى مَصْيدة عتيقة من مصايد السرطان البحري ، ثم نظر إلىّ لحظة وعاد إلى نومه من غير أن يتحرك . وكنت قد جاوزت الفناء المبلط بالحجر الغليظ ، ورأيت المطبخ تسطع منه روائح الوقود من اليوكالبتوس والصنوبر وقد دخله ضوء الشمس من بعض الفُرُجات فتدوَّر فوق أرضه كالدنانير ، والموقدَ تندلع فى بهرته ألسنة اللهب الأزرق ، والمائدةَ ينبسط عليها خِوان ممزق ، وامرأةً دقيقة العظام صغيرة الجثة قد حسرت عن ذراعيها وأخذت تكوى بعض الثياب على هذه المائدة فى نشاط وهمة ؛ وكان شعرها القليل قد ردَّته بعناية إلى قذالها فانعقص خفيفاً على قفاها ، ثم فَرَقه على الجبين خط كأنه الطريق فى أرض مغبرَّة بور . وكانت شفتاها مضمومتين مزمومتين فتحسبها تجرعت دواء مراً بقى مذاقه فى فمها . فلما قرعت عليها الباب فزعت ، فشرحت لها سبب زيارتى إياها ، فقالت تعيد ما قلت فى سذاجة :

— تريد لبنا ؟ ثم وضعت مكواتها على وعاء وذهبت إلى خزانة الطعام فكشفت عن إحدى الجرار وقالت : نعم أستطيع أن أعطيك لبناً .. وبيضاً أيضاً . تفضل فادخل هنا واقعد قليلاً . ثم تقدمتنى إلى حجرة ففتحت بابها وقالت : أعتذر إليك من سوء النظام فإن المنزل صغير . وأسرعت إلى الثياب المطوية الموضوعة على الكرسى فرفعتها ، وإلى نسخة ضخمة من التوراة كانت تشغل مقعداً من الشَّعر فنقلتها ؛ ثم نفضت الغبار بذيل مِيدَعتها ، وأصلحت ما تهوش من الغطاء المطرز على مسند الكرسى ثم ولت وهى تقول : لن أغيب عنك طويلا . دقيقة واحدة

* * *

كان لابد أن تعروني هزة من البرد فى هذه الحجرة . كان أمامي صليب من البلور معلق على الحائط ، ونوع من الأراغين جاثم فى الزاوية . فوقع فى نفسى أن أعزف على هذا الأرغن المصفَّر معتقداً أننى متى أمررت أناملى على مضربه غنى معى هذا الكاهن (١) المجهول الذى يحرس الباب ، وذلك (اللورد نلسون) ، وهذا (الطفل المبذر) ، وسائر هؤلاء الذين يحدقون النظر فىَّ وهم محصورون فى أُطُرهم الغُبْر فتملأ نظراتهم نفسى روعة ورهبة . لقد عددت — زيادة على عين نلسون الواحدة — ثلاثين زوجاً من العيون ، فكنت على وشك أن أعلن لهذا القاضى أننى غير مذنب . وكان فى الحجرة غير ذلك تذكارات وكتب تكفى لإقامة سوق : أضغاث من السرخس الجاف ، وزجاجة من ماء الأردن ، وأهرام من فواكه الشمع قد غشَّاها الغبار ، وأوانٍ وشماعدُ قد قامت على جدار

(١) كلها صور معلقة على الحائط

الحجرة كما يقوم السائلون فى زوايا الطرق . وكان الورق الملون الذى يكسو الحوائط قد حال لونه فانكفأ ، وذهب لِصاقه فتهدل ، وموقد المدفأة يمطر من حين إلى حين رذاذاً من السناج على طاقة ضخمة من الزهر المصنوع من الورق الأبيض . وعلى مسند النافذة كان هناك شئ واحد يسترعى النظرَ جماله : نموذج مصغر لسفينة من سفائن القرن الخامس عشر صُنع من خشب الزان ، وصُبغ بلون الدخان ، ونُصب عليه شراع مقبَّب كأنما ملأته الريح . وعلى جوانب السفينة أصص كبيرة فيها صبَّار تدلت أوراقه على شكل السكاكين ؛ ومن وراء السفينة تبصر من النافذة المفتوحة ثبج البحر الأدهم وقد انبسط وامتد حتى التقى بالأفق ؛ وعلى غواربه المواجة يجرى زورق صغير كأنه الورقة الذاوية

كان يصدر عن المطبخ أصوات مختلفة كرنين الأكواب واصطدام الصينية وسقوط الملعقة . ثم دخلت العجوز الصغيرة فجأة فنشرت خواناً أبيض غير مصقول ، ورفعت عن المائدة المزعزعة ما يغطيها من الأشياء ؛ ثم مدت الخوان فوقها بعناية الورع الذى يزين بالوشى صدر الهيكل . ولما حدثتها عن الوضع الذى تسقط عليه أطراف الخوان حدقت ببصرها إلى فجأة وقالت مغمغمة وهى تفكر :

نعم ياسيدى : أجنحة من طير النورس كما قلت ؛ زوج فى كل زاوية

ثم صمتت لحظة ، وظهرت فى عينيها الوداعة والحنان كأنها كانت تجتلى رؤيا داخلية . ثم عادت تقول :

إن ولدى كان يقول مثل هذه الأشياء : كان يقول إن نسائج العنكبوت هى أشباح العجلات المحطمة والتروس المهشمة ...

ثم وضعت على الخوان كوباً وأناملها ترتجف .

فقلت لها : صورة جميلة ! لقد كنت أود لو عرفت ولدك ، فإن القليل من الناس هم الذين يسيرون فى الحياة وعيونهم مفتوحة . فاختلجت يداها وتقلصت أناملها فندمت على أن تكلمت . قالت : إن ولدى مدفون هناك على الرابية . وكأنها كانت لا تزال تسمع جَرْس الكلمات الذى خفت فبدا عليها أثر الشك . وصوبت طرفها إلى ركن من أركان الحجرة وقالت : أنا وحدى التى أعرف أنه مدفون هناك .

ثم تألفت على الرغم منها الحروف ، ونطقت على غير إرادتها الكلمات ، فقالت :

«أنا أعلم أنك غريب ، ولكن لا بأس . إن سرى يثقل أحياناً على صدرى ، فإلى من أستريح بمكنونه وأسترفه من عبئه ؟ ليس لي إلا ميكائيل زوجى ، وهو لا ينبغي أن يعرفه مطلقا . إن ذلك يقطع نياط قلبه البائس ! واستمرت شفتاها تنفرجان وتختلجان ولكننى لم أسمع شيئاً . ثم دلفت إلى النافذة وتناولت السفينة بيدها فى حيطة ورفق ، وافتر ثغرها عن ابتسامة شاحبة أضاءت على شفتيها كما تضيء الشمعة الضئيلة في ركن الحجرة الواسعة المظلمة ، ووضعت أمامى نموذج السفينة ثم تطرحت متهالكة على مقعد كأنما أنصبت نفسها فى عمل لا تطيقه ، وقالت بصوت خافت متهافت : ذلك من صنع ولدى ! لقد كان ماهر اليد ثاقب الذهن خصب الخيال ، يتصور الأشياء العجيبة ، ويروى الحوادث الغريبة ، وذلك مما وقع له فى السفر أو سمع به فى البلاد . لقد كان يخيل إلى أنى أقرأ التوراة وأنا أسمعه . لماذا أخذه الموت ؟ لقد كان الله حريا أن يعلم ... ! ولكن لا ينبغى أن أشكو هذه الشكوى ، ولا أن أجزع هذا الجزع . إن ولدى جون كان لا يبرح يقول :

إن الوفاة خير من الميلاد . لقد كان يعرف ...

وكانت تمسح بيدها على جدار السفينة فى حال من الذهول خدّرت أعصابها ، وأنامت أوصابها ، فعاد صوتها خافتاً كحديث النفس ، وكلامها عذباً كرنين الموسيقى ، فكانت كلماتها أشبه بالورود تُنثر على قبر !

« لقد كان من الطبيعى أن يصير ولدى بحاراً ، فان ملح البحر كان يلهب دمه . كان وهو صغير يتحدث عن الأمواج كما يتحدث عن أخواته . وكان يسمى كل موجة اسماً : فهذه (الكرنبة الجمدة) وتلك (الكلابة) وهاتيك (الكسولة) . ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى كان يعرف كل بحار العالم . لقد كان مساعد الربان فى سفينته . وكان كلما عاد من سفرة لاحظت فرقاً واضحاً فى رجولته وكفايته واستعداده ، فأقول لنفسى وأنا أنظر إليه :

إن جون ولدى لا يرتاع لشىء ولا يتضعضع لحادث !

لقد صنع هذه السفينة الجميلة أثناء رحلته الأخيرة . وكأنى أسمعه الآن حين عاد وهو يثبّت هذا النموذج على لوح من الخشب يقول :

« هاك يا أماه ! تلك سفينتك قد أرست على المرفأ »

وكان يضحك وهو يقول لنا : تحققوا من وثوق المركب . ولما دخلنا الدار أنا وميكائيل وجدنا رزمة من الأوراق المالية تكفى أن نعيش عليها خمس سنين ، ثم قَدْراً من الطباق لميكائيل ، ومِشْبكاً لى . ولا تسل عما ألم بنا فى تلك الليلة من الأطياف الرائعة والأحلام الجميلة !

لبث فينا ثلاثة أسابيع كانت كلها فرحاً ومرحاً وبهجة ؛ ثم حُمَّ الفراق وأُفِد الرحيل ، فصحبناه ذات صباح إلى (بورتسدون) . وطلب إلينا أن نرقب سفينته وهى تقلع فى بكرة الغد إلى عرض (المنش) ، ووصف لنا شكلها ولونها ورسمتها حتى لا نضلها بين السفن ؛ وقال وهو يودعنا إنه سيعود عما قليل

وفى الحق لقد عاد بعد قليل ! فقد ثارت يوم رحيله عاصفة هوجاء زمجر فيها الرعد وهزمت الريح حتى شق على المرء أن يسمع نفسه . وكنت أنا وأبوه نرى مع ذلك أن الأمور تجرى لولدنا فى مجراها الحسن

رصدنا سفينة (جون) وهى (سبيننج كلود) ولكننا لم نر شيئا . على أننا رجونا أن الأمور تجرى لجون فى مجراها الحسن

ولا يزال ميكائيل يرجو !

انقضت بضعة أيام . وفى يوم سبت رأيت طيور النورس تحوّم هائجة على رأس (كنتى) . وقد ظلت ضحوة النهار تتشاجر وتتطاير كأنها قصاصات من الورق تناثرت فى الهواء

لم أدر ماذا كانت تعمل ، فقد كنت من عملى فى شغل شاغل

وبعد الظهر أقبل رجلان غريبان يطلبان إلىّ لوحاً من الخشب وقطعة من قماش الشراع ، فأنهم وجدوا على الساحل تحت الرأس جثة بحار قذف بها البحر . فأعطيتهما ما سألا ، وذهبا ثم عادا بالجثة وهما يلهثان تعباً ، ويتصببان عرقا ، فوضعاها فى مخزن الحب . وكانت تتدلى من تحت القماش الذى لفّ به الجثة مِزَقة من قميص كأنها الجناح الكسير . فلما انصرف الرجلان نضوت القماش عن الجثمان وفحصت القميص فعرفته . عرفته لأنى طالما غسلته وكويته !

لقد عاد ولدنا جون !

كشطت الأصداف العالقة بحذاء جون ؛ ثم فكرت فى زوجى فسألت الله أن يعيننى على إخفاء السر عنه . فاستجاب الله لى ، إذ لم يدع فى جثمان جون ولا فى لباسه ما ينم على شخصيته إلا هذا القميص ؛ وميكائيل ضعيف الذاكرة فلا يستطيع أن يعرفه . ولما رجع فى المساء ذهبت

إلى لقائه ، وأخبرته أن الأمواج ألقت فى الساحل جثة بحار . فأقبل يراها . وما أنس لا أنس النظرة التى ألقاها على الغريق ! ولكنه لم يعرف ولدنا جون

ثم خشيت أن يأتى نبأ الغرق فيقوض كل ما بنيته ، فكتبت إلى النواخذة[1] أتحقق الخبر ، فأجابونى أن كل شىء كان على أحسنه ؛ وأرسلوا إلىّ ثبت الموانئ مسجلاً فيه ما تلقيه السفينة من الوسوق، فاستنتجت أن ولدنا ألوت به هبّة من الريح العاتية ، أو موجة من الأمواج الطاغية ، وهو يحاول على ما أظن أن يلقى نظرة الوداع على منزله . ولم يكن النواخذة على علم بمصرعه . ولن يعلموه هم وميكائيل إلا يوم تؤوب السفينة وعليها مساعد آخر . ولكن (اسبينج كاود) لن تؤوب : فقد ابتلعها البحر البعيد على الشاطىء الأقصى من العالم . ونجا البحارة وتفرقوا فى البلاد شذر مذر . ويعتقد ميكائيل أن جون استقرت به النوى فى مطرح من مطارح الغربة ، وأنه سيكتب إلينا متى جمع ثروة . وأسأل الله أن يثبته دائماً على هذا الاعتقاد وذلك الأمل !

تحركت أذنا القط الأبيض لحظة حين عبرت الفناء ، ولكنه لم يفتح عينيه تجاهلا لوجودى . وكان الخليج خالياً ، والزورق الذى رأيته منذ ساعة يجرى على الموج قد اضطجع على الرمل كأنه سمكة ضخمة ميتة . وكان (ميكائيل سوان) يخيط زنبيلاً مملوءاً سراطين بسلك من الحديد . فتقدمت إليه وسلمت عليه فهز رأسه فى ذهول وقال :

يوم سعيد ! نهار ضاح جميل !

وكان الرجل عملاقا أشيب الشعر معروق الأشاجع ، له عينان مظلمتان عميقتان تذكرانك بغرفتين مفروشتين بالقطيفة القاتمة . وكان فى جوف الزورق سمكة غريبة الشكل مهشمة الجسم ، فتناولها ميكائيل بيده وقال فى هدوء وبطء :

عجيبة من عجائب خلق الله ! قنصتها فى مصيدة من مصايد السراطين ثم قتلتها أسرع ما أستطيع

وكأنما كان الشيخ يستغفر لنفسه قوة خفية . فحدثته عن سمكة تشبه هذه السمكة يجدها المسافرون فى بحر الكرايب . فنظر الرجل إلى وهو يفكر ؛ وبدا عليه أنه كان ينضد الكلام الذى يلقيه ، كما ينضد البنّاء الآجرّ الذى يبنيه . ثم قال وهو يومئ برأسه إلى الجوسق: لقد حد ثكلك عن ولدها . أليس كذلك ؟ إننى أعلم كيف ترك المركب مرساه وهى معجبة ببحاره . إنها تعتقد الآن ولا شك أنه فى جزيرة من الجزر النائية . ولا بد أن تكون قد سألتك : هل سمعت الناس يتحدثون عن جون سوان؟

إن ولدنا عاد ! ولكن زوجتى لا تعلم . إنها ضعيفة البنية هشة العظام ، فلو علمت أنه دفن فى مقبرة المجهولين لغشيتها ولا ريب صرعة الموت

إن ولدى خطفته موجة من طواغى الموج ، ثم دفع به التيار إلى الشاطئ مشوّه الوجه مستسرّ المعالم . فعثرت عليه قريباً من الرأس حين تنفس الصبح ، فنزعت عنه ما ينم عليه من الأرواق والأزرار والعلائم ، وذهبت قُدُماً إلى (بورتسدون) ألتمس من يحمله ، فلم أكد أترك المكان حتى مر بالجثة رجلان فنقلاها إلى المنزل

إنها لم تعلم حتى اليوم أن ذلك الجثمان الممزق الذى كان مسجّى فى مخزن الحب كان من لحمها ودمها . لقد لقيتنى فى ذلك المساء فقالت لى فى لهجة تنم عن الأسى المكنون : شاب مسكين وجدوه على الساحل ! لا بد أن نبذل ما نستطيع لنعرف من هو . إن أمه تتحرق الآن شوقاً إلى لقائه ، وتسأل الرائح والغادى عن أنبائه ... !

الزبات

(١) النواخذة جمع ناخذاة وهم أصحاب السفن ووكلاؤهم

الرجل الذي صنع المعجزات

للكاتب الانكليزي ولز

بقلم الأستاذ دريني خشبه

أكبر الظن أن هذه الموهبة الخارقة لم تكن طبيعة فيه ، بل إنها قد جاءته عفواً ، ومن غير أن يدري عنها شيئاً من قبل ؛ فلقد بلغ الثلاثين وهو أشد ما يكون إلحاداً وكفراً ، وإنكاراً لهذه القوى الخرافية الخارقة التي تأتي المستحيلات... ولا يفوتنا هنا أن نذكر أنه كان شاباً قصير القامة داكن العينين ، له شارب لا يفتأ يفتل سباليه المرهفين ، ووجه صارم به كلف خفيف ... أما اسمه فجورج ماك رَيْتَر فَذَرِنجاى ... وهو اسم لا ينم بحال عن خافية صاحبه الكامنة التي تستطيع أن تأتي المعجزات . وكان كاتباً في مشرب في جُومْشتْ يقال له مشرب التنين الطويل ، وكان لا ينى يجادل أقرانه في استحالة المعجزات التي ينسبها الناس لبعض من سلف من الأنبياء ورجال الكهنوت .. ومن العجيب أن تصدر عنه أولى خوارقه أثناء إحدى المجادلات الحادة بينه وبين معارضه المؤمن العنيد : طودى بيمش صانع الدراجات الذي لم يكن يملك أن يرد براهين خصمه بأكثر من هذه العبارة القصيرة المقتضبة : « هكذا تقول أنت ... هكذا أنت تزعم !! » تلك العبارة الملولة التي أوشكت أن تخرج بصاحبنا عن طوره . وكان ممن شهد هذا الجدل الأخير بينهما شخصان آخران يدعى أحدهما كوكس وتُدعى الثانية مس مايبردج... وهي فتاة وَقور محترمة كانت تعمل نادلة في المشرب ، وكانت في تلك اللحظة واقفة أمام الصنبور تغسل الأكواب والأشواب ، بينما كان ظهرها إلى المجادل الثائر الذي كان يبهر زميليه بنقاشه الرائع الطريف

وقد ضاق الأستاذ فذرنجاى بمجادله السيد بيمش ذرعاً ، وأحنقه منه غِبُّه وقلة فَهَمِه ، فراح يهتف به : « رويدك ياسيد بيمش ! هلم تفهم ما هي المعجزة وماذا تكون ... إنها شيء لا يتفق وقانون الطبيعة ، لأنه ضدّ لها ، ومع ذلك فهم يقولون إنه يقع بقوة الإرادة ، وبشرط أن تنصب عليه إرادة خاصة جبارة... أليس كذلك ؟» ويجيب صانع الدراجات حسب عادته : «هكذا أنت تزعم !» فيعود فذرنجاى إلى حديثه وقد سره هدوء معارضه وحسن إصغائه الذي هو أول أمارات التسليم ، فيقول : « وإليك مثلاً يا صديقي بيمش هذا المصباح الذي يضيء لنا الآن وهو في وضعه الطبيعي ؛ أ إذا قلبناه رأساً على عقب ، فهل يمكن أن يضيء لنا هكذا ؟ هل ذلك ممكن ؟ » ويرتبك بيمش قليلاً ثم يقول : « أنت تزعم أنه لا يمكن أن يضيء ! »

— ولكنك أنت !! أنت ! ماذا تقول ؟

— لا ... لا يمكن ... لا يمكن !

— حسن جداً !! ولكن ربما جاء الآن أحد الناس ، وليكن أنا ، فيقول للمصباح ، ولْأَقُلْ أنا له بعد أن أستجمع كل إرادتى : «أيها المصباح ! انقلب رأساً على عقب ، واحذر أن تنكسر ، ثم ظل مضيئاً فى هدوء ... هيا !! » . وحدثت المعجزة الأولى التى لا يمكن تصديقها ... فقد انتفض المصباح من مكانه انتفاضة انقلب بها رأساً على عقب ، وظل مضيئاً فى هدوئه العادى ، مرسلاً شعلته إلى أسفل كما تعود أن يرسلها لتضىء مشرب التنين منذ زمان وزمان ... وقد بهت أستاذنا فذرنجاى ... وظل واقفاً مكانه كأنما سمر فيه ، مادًّا ذراعه ، مشيراً بسبابته إلى المصباح ، كأنما يتوقع أن يهوى فتحدث كارثة . وقد ذعر صانع الدراجات ففر هارباً ، وكذلك فر رُوّاد المشرب هاربين ... أما الفتاة فقد طار لون الورد من خديها ، وَوَلّت دُبُرَها صائحة صارخة مولولة ... وبقى المصباح معلقاً فى هواء المشرب قُرابة ثوان ثلاث ، ثم صاح فذرنجاى صيحة اليائس المختنق : « أَوْه ! إنى لا أستطيع أن أهيمن على المصباح أكثر من هذا » ثم تراجع قليلا فتأجج المصباح ، وترنح هنا وهناك ، وسقط فى ركن المشرب فتحطمت زجاجته ، ولولا أن كان خزّانه من المعدن الصلب لانبجس واشتعل زيته ، والتهم الماخور[1] بما فيه

وقد اتهم كوكس صاحبه بالغفلة والشعوذة ، واتهمه كل من كان ثمة بمثل ذلك ... أما هو ... أما فذرنجاى . . . فقد وقف مسبوهاً شارد اللب ، لا يدرى كيف يعلل ماحدث ، وكانت فى ذهنه عاصفة هدارة من الأفكار المضطربة ، بيد أنه اضطر أن يتهم نفسه بمثل ما اتهمه الناس مجاراة لهم . . . وأزعجه أن يقترح بعضهم طرده من المشرب حتى لا يعود إلى تعكير صفو المكان ، فراح يدفع عن نفسه حتى أبقى صاحب الحانة عليه

وعاد إلى منزله فى الليل ودمه يغلى فى عروقه ، وقد رفع بنيقة معطفه حول عنقه فشخصت أذناه من فوقها ، وراح يرمق مصابيح الشارع وهى تتوقد في فحمة الظلام . . . حتى إذا خلا إلى نفسه في غرفته الموحشة في أحد منازل تشيرش رو انحط فى فراشه ، وطفق يفكر ويفكر ... ويسائل نفسه الذاهلة الحيرانة : ليت شعرى ماذا حدث . . . ؟ ! ثم نهض فخلع معطفه ، وألقى بقبعته ، وجلس وفى نفسه هاتف يتردد فى ثرثرة وعنف ، فيقول : « أبداً والله ماقصدت أن ينقلب المصباح اللعين أبداً ! » ثم وقر فى ذهنه كيف لم يستطع أن يهيمن على المصباح المنقلب ولا كيف يرده إلى حالته الأولى . ولو قد عرف فيه هذا السر من قبل لهان الأمر ، فهو لم يَمْرن على تنظيم إرادته قبل هذا ، لأن المعجزة الأولى جاءت مصادفة وعَفْوَ لحظتها ... وعلى كل حال فقد بدا له أن يجرب مرة أخرى ، مادام المنطق لم يسعفه بدليل ما حدث

وكانت الشمعة التى أوقدها تضىء الغرفة فى هدوء ، فحدّق فيها ببصره ، واستجمع إرادته فسلطها عليها ثم هتف بها فقال : « إرتفعى ! » ... وكان يحسب أنه إنما يُشَمْوذ حين يطلب إلى شمعة أن ترتفع من تلقائها . . . لكنه سرعان ما فاء إلى نفسه حين رأى الشمعة ترتفع فى الهواء فتظل

(١) ابن الأعرابى والثعالبى على أن الماخور مكان شرب الخمر أما صاحب القاموس فهو على أنه بيت الريبة

معلقة لحظة يسيرة ، ثم تسقط فوق مائدة دمامه[١] حين يغفل عنها لما حاول أن يتنفس صعداءه مما اعتراه من الدهش . . . وبقى يخبط فى ديجور لا يكشفه إلا الدبالة التى توشك أن تنطفئ .. وجلس فى ظلام الغرفة يكلم نفسه ويناجيها ، فيقول : « هاهو الشىء قد حدث مرة أخرى ! وكيف حدث ؟ لا أدرى ، ولكنه حدث على كل حال » . وبحث فى جيبه عن علبة الثقاب ليوقد الشمعة ، فلم يجدها ، فبدا له أن يجرب إرادته فى الحصول على ثقاب بطريق المعجزة فمد يده فى الظلام الحالك ثم تجهم وقال : « ليكن ثقاب فى يدى تلك ! » وما كان أعجب أن يحس جسما لطيفاً يقع فى راحته ، حتى إذا تحسسه وجده الثقاب الذى طلب ... وحاول أن يشعله فلم يفلح ، لأنه كان من الكبريت الأمين[٢] ، فألقى به . ثم بدا له أن يخضعه لسلطانه الارادي ، فأمره أن يشتعل فاشتعل ، فتناوله من فوق المائدة ليوقد الشمعة ، لكنه انطفأ قبل أن يفعل . . . وهنا اتسع أفق إدراكاته عما يحتمل أن يتأدى له على هذا النحو ، فتحسس الشمعة فى الظلام وثبتها فوق (شمعدانها) ثم هتف فقال : « ها أنت هنا فأضيئى ! » وأضاءت الشمعة .. ونظر فدرنجاى فرأى ثقباً فى غطاء المائدة يتصاعد منه دخان خفيف ، فحدق فيه بصره ، ثم رفعه إلى المرآة المعلقة أمامه فإذا وجهه ، وإذا عيناه العميقتان توحيان إليه من عالم مجهول .. وللحال ... انطلق يخاطب نفسه : « وبعد ... فما أنا والمعجزات الآن ؟ ! » . . . وكانت تأملاته من نوع عميق وإن كانت مختلطة بعض الشىء . . .

وكان كلما مد بصره فى أغوار الوجود ازداد يقينه بما هو مضمر فيه من الإرادة الصافية النقية . والآن ، وقد شجعته تجاربه البدائية فقد طمح إلى ما هو أكبر .. وأخطر .. فأمر ورقة فارتفعت فى الهواء ، وكوباً من الماء فتحول ماؤه إلى لون القرنفل ثم إلى اللون الأخضر ؛ ثم أمر أن يكون أمامه مسمار ، فكان ، ثم أمر أن يمحى فامحى ، وأمر أن يكون له (فرچون) أسنان ، فرآه على المائدة أحسن ما يكون (فرچون) ... وآمن بعد هذا بما استودع فيه من إرادة خالقة خارقة كانت تبدوله إرهاصاتها فيما مضى ، وإن لم يكن يؤمن بها ، وانقلب ذعره وتردده وشكه فصارت كلها زهواً بهذه الميزة وكبرياء ... وأيقظه ناقوس الكنيسة من تأملاته حين دق الواحدة فعاود خلع ملابسه لينام ، كي يستيقظ فى الميعاد الذى ينبغى أن يتسلم فيه عمله بالمشرب ؛ ولم يدر فى خلده أنه بهذه الموهبة الكامنة فيه يستطيع أن يستغنى عن عمله ثمت . . . ودار فى ذهنه أن يأمر فيكون فى فراشه . . . وكان له ما أراد ! ! ثم أمر أن تنضى عنه ثيابه فانسل منها كأسرع من البرق ! ثم أمر أن يكون له قميص من صوف ناعم فأسلك فيه ! ثم أمر أن ينام نوماً عميقاً هادئاً فغط فيه للحظته ! ! !

واستيقظ فى ميعاده ، وجلس إلى مائدة فطوره وهو مشغول البال جياش الفكر ، يسأل نفسه إن كان ما حدث له أمس ضرباً من أحلام اليقظة ؟ ثم رأى أن يحاول تجاريب جديدة ، فأمر ، فأحضرت أمامه بيضتان من فوق الرف وضعتهما عليه صاحبة البيت ، ثم أمر ، فأحضرت بيضة أوزة كبيرة ، بيضت وسلقت ، ونزعت عنها قشرتها بحيث لم يحدث ذلك

(١) الدمام (التواليت)

(٢) تعريب استحسناه Safety Match

فيها إلا من خرم صغير ... وكانت ألذ من البيضتين الأخريين وأشهى ... وهرول إلى المشرب وهو ما ينفك يفكر فى الأعاجيب التى صنعها ؛ ولم يعمل شيئاً ما من أعمال المشرب كما كان يعملها قبل أن يكتشف فى نفسه هذه القوة الخارقة ، فقد انتظر حتى لم يبق عن موعد انصرافه غير عشر دقائق ، ثم أمر أن تتأدى جميع أعمال اليوم ، فحصل له ما أراد ...! وحدث ما شئت عما شاع في أعطافه من الزهو الذى طغى عليه حتى جعله لا يأبه بما تهكم عليه عرفاؤه به... بيد أنه كان زهواً مقروناً بتعجبه هو من نفسه ، إذ كيف أصبح يستطيع أن يرفع بنظرة ثاقبة مادة هشة — كتراب لفافة التبغ مثلا — إلى ما هو أكبر من ذلك وأخطر ... ؟ والشيء الوحيد الذى لم يفكر فيه هو الاستعفاء من عمله فى هذا الماخور القذر الذي أصبح لا يتفق وأعجب موهبة من نوعها فى العالم ! وقد رأى أن يصلح من شأنه بشيء من عزائمه ، فطلب أن يكون أمامه ماستان من أندر الماس الموجود فى الدنيا ، فكانتا أمامه فى أقل من غمضة عين ، لكنه أمر فامحتا عند ما شاهد جومشت الصغير مقبلا نحوه ، خشية أن يثير شكوك الفتى فى المصدر الذى وصلتا إليه منه ... وآثر أن ينطلق إلى الخلاء فيجرى هناك تجاربه.. وكان هو فى نفسه مفتقراً إلى حسن الذوق وسلامة الابتداع ، ذلك أنه برغم موهبته الدهشة لم يكن شخصاً ممتازاً فيستطيع الابتكار والتجديد ، لذلك تبادرت إلى ذهنه معجزة موسى وعصاه السحرية .. لكن فكرة الثعابين الهائلة التى تتحوى وتسعى فى ظلام هذا الليل البهيم أزعجته ، فأعرض عن تجربتها وآثر أن يجرب ما قرأه مرة فى أحد الاعلانات عن عصا (طنهوسر) لما راقه من جمال إعجازها ... فرشق عصاه فى طرف الطريق المعشوشب ، ثم حملق فيها قليلا ، وأمرها أن تزهر ! تعالى الله ! لقد عبق الهواء حول فذرنجاى بشذي عطرى حلو ملأ خياشيمه حتى كاد يسكره ... وطرب أيما طرب ، ثم أخرج علبة الثقاب فأشعل واحداً أبصر فى ضوئه هذه الباقة الناضرة من ورود الربيع نامية فى رأس عصاه كأجمل ماتنمو الورود في الجنة الفيحاء ؛ وخشى أن ينكشف سره قبل الأوان فهتف بالعصا فقال : « إرجعى ! » وكان يعنى أن تعود العصا لما كانت عليه من الانجراد قبل ، لكن ... وأسفاه ! لقد ارتدت العصا إلى وراء فى شدة وعنف ، فأصابت رئيس شرطة كان ماراً فى هذه الآونة ، فجعل يصخب ويقول : « من المجنون الذى يقذف المارة بالعوسج ويدميهم بالشوك ؟ » فقال فذرنجاى مرتبكا : « آسف جداً أيها الأخ » لكن رئيس الشرطة ، واسمه ونش ، تقدم نحو أستاذنا مرغياً مزبداً ، ثم أمسك بشاربه بقوة وقال : « ماذا تعنى بهذا ؟ هيا ! أوه ! أهو أنت يا أحيمق ؟ ألم يكفك تحطيم المصابيح فى الشارب ؟ » فقال فذرنجاى : « أنا لا أعنى شيئاً قط ... أبداً ، أبداً » فقال الشرطى « وفيم قذفتها إذن ؟ » قال هذا وشد شارب فذرنجاى ، ثم قال أيضاً : « لقد حطمت مصباح التنين ، ولم يبق إلا أن تشاكس رجال الشرطة بعصاك ! » فقال الفتى يجيبه : « أنظر هنا يا مستر ونش ! الحقيقة .. أ.. ننى كنت أجرب معجزة !.. » فقال الشرطي مستهزئاً : « تجرب م ... أنت ؟ بل كنت تشاكس الناس فحسب لأنك من دون العالم جميعاً لا تؤمن بالمعجزات ... وأنا من دون الناس

جميعاً سأريك قيمة تعزيماتك ... » وثار ثائر فذرنجاي من غلظة الشرطي فصاح به : « أجل .. إن لدى هنا قدراً هائلا من التعزيمات المخيفة ، وسأريك واحدة منها ، فهلم ... إنطلق إلى هيدز .. هيا إلى الجحيم ! إذهب ! »

وفي لمحة نظر الفتى حوله فلم يجد إلا نفسه !

ولم يحاول أن يعمل معجزة ما هذه الليلة بعد هذا ، بل انطلق إلى داره من غير أن يلتفت إلى عصاه المزدهرة ، ونضا ثيابه ، واستلقى في سريره في كلال وفي ... هدوء ... وجعل يفكر في هذه القوة الخارقة المستسرة فيه ، وفي رئيس الشرطة الغليظ المستر ونش ، وفي هيدز : « هيدز العجيبة التي لا أعرف عنها شيئاً ! » وخطرت له فكرة عجيبة حينما نهض من فراشه ليخلع حذاءه ، ذلك أنه شعر بألم وحسرة على ونش ، خشية أن تصيره نيران هيدز حطاماً ، فأمر به أن يُنقل إلى مدينة سان فرنسسكو ! وتبسم ساخراً من نفسه ، ونام نوماً هادئاً ، وحلم أحلاماً لطيفة عن ونش !

وفي اليوم التالي ، سمع نبأين عجيبين جعلت ألسنة الناس تلهج بهما في تَنَدُّر ودهش ، ذلك أن بعض الآلهة قد أنبت شجرة غريبة من أزهى أنواع الورد المتسلق تلقاء منزل المستر جومشوت في طريق (لوللابورو) ... وأن النهر قد غار في الأرض على مدى (رولنجس مِلْ) من أجل رئيس الشرطة ونش ... وظل فَذَرِنجاي يصغي إلى كل ذلك ويستهول ما تصنع قواه الخارقة !

وظل يفكر في حاله طوال يومه هذا ، ولم يأت من خوارقه شيئاً إلا أن أرسل إلى ونش بعض ما لا يستغني عنه في سَنْ فرنسسكو من مال ولباس وغذاء ! وإلا إنجاز أعمال المشرب بالطريقة الارادية

وكان يتفق أن يذهب المستر فذرنجاي في أمسيات أيام الآحاد إلى كنيسة قريبة ليستمع إلى نصائح القس المؤمن المتزمت المستر مايدج وعظاته المحشوة بالسمعيات العجيبة ، التي لم يكن يؤمن فذرنجاي بشيء منها لما كان يساوره بصددها من شكوك وريب .. وكان القس يلقي عظة موضوعها (الأشياء التي ليست طبيعية) وقد أفاض في ضرب الأمثال إفاضة ألقت بصيصاً من النور في ذهن فذرنجاي ، فخطر له أن يستفتيه في أمره بعد أن يفرغ من إلقاء موعظته ، وبعد أن ينتهي من قُدّاسه[1] .. وقد عجب لِمَ لَمْ يفعل ذلك من قبل .

والقس مايدج رجل نحيف معروق تنظر إليه فتحسب أنه نِضْو ، ومع ذلك فله رقبة طويلة ونظرات متقدة مؤثرة ومعصمان مفتولان ... وقد عجب حين ذكر له رسوله أن شاباً معروفاً برقة تدينه واستهتاره في المدينة يبغي لقاءه ليتحدث إليه حديثاً خاصاً وكأنما تعمد القس أن يهمل الفتى ويستأنى عليه ، ثم أرسل إليه رسوله يقضي به إلى منظرة مجاورة أفردها القس للقراءة والاستذكار ، فجلس الفتى على كرسي فخم مريح قريباً من نار المدفأ المتأجج ، ولف ساقاً بأخرى فأحدث ظلاً على الحائط القريب يلفت النظر بانحنائه العجيبة ... ، ... وسأله القس عن حاجته ، فارتبك الشاب وتندّى جبينه بعرق الخجل ثم لم يجد بداً من الكلام فقال : « من الصعب عليك يا مستر مايدج أن تصدق ما سأرويه لك .. » ثم بلع ريقه مرة بعد أخرى ، وطفق يحوم حول موضوعه ولا يكاد يبين ، حتى إذا لاحظ ملال القس

(١) كلمة نصرانية مولدة لم نعثر عليها في المراجع العربية

سكن قليلا وسأله عن رأيه فى المعجزات ... وكان المستر مايدج لاينى يقول : « حسن ... حسن جداً ! » كلما قال فذر نجاى شيئاً

— وأحسبك لا تصدق أن بعض الناس كشخصى الضعيف مثلا ، يستطيع وهو جالس هنا أن يصنع أشياء من قبيل المعجزات بقوة خارقة كامنة فيه »

— ولم لا ؟ إن هذا محتمل جداً

— وإذا كان لى حرية التصرف هنا فربما أريتك شيئاً من تجاربى ... فمثلاً ... علبة طباقك هذه ... أإذا حولتها لك إلى شىء سترى أنه عجيب حقاً ، فهل يكون عملى معجزة أم لا يكون ؟ أنظر يا مستر مايدج ... أيتها العلبة ... كونى طاساً من أزهار البنفسج ! »

وما كاد يأمرها ويشير إليها بسبابته حتى كانت طاساً جميلاً منضوراً بأينع أزاهير البنفسج ... وقد قفز القس مذهولاً ، ووقف ينظر إلى الزهر ولا يتبس وإن جعل يتحنى فيئة بعد أخرى يتشمم العبير المتأرج العبق ... ثم سأل الفتى كيف صنع ذلك ؟ فقال وهو يفتل شاربه : « ها قد شهدت بعينيك ، فماذا تسمى هذا ؟ أليست هذه معجزة ، أم هو ضرب من السحر ؟ ثم ماذا تظن فى هذه القوة الكامنة فىّ ؟ إنى من أجلها سعيت إليك لتجلوها لى ! » فقال القس : « حقا إنه لحدث فذ ليس مثله حدث ! » . فأجابه الشاب : « والعجيب أننى قبل أسبوع لم أكن أعلم أن لى هذه القوة الخارقة التى اكتشفتها عفواً ، وإنى أعزو أمرها إلى جانب شاذ فى إرادتى لا أكثر ولا أقل ! » وسأله القس : « وهل هذا الذى صنعت هو كل ما تستطيع أن تفعل ؟ أم أنك تقدر على أشياء أخرى ؟ » فقال الشاب : « أجل أيها السيد ! أنظر ... أيها الطاس تحول إلى وعاء من سمك ... أوه ! لا ... تحول إلى وعاء زجاجى ممتلئ بالماء ، وليسبح فيك سمك من ذهب ... فهذا أحسن ! أنظر يا مستر مايدج ! هل رأيت ؟ » فدهش القس وقال يخاطبه : « عجيب حقا ! هذا لا يمكن تصديقه ! إنى لأظنك ... ولكن ... لا ... ... » قال فذر نجاى : « إنى أستطيع أن أحوله إلى أى شىء ... أنظر ... أيها الوعاء ... كن حمامة ... هيا ! » وحار الوعاء فصار حمامة زرقاء جعلت ترف فى فضاء المنظرة ، فكان يرتجف القس كلما اقتربت منه ... « قفى مكانك ! » ووقفت الحمامة مرنقة فى الهواء ، فأمسك بها فذر نجاى ووضعها على المنضدة ، ثم قال يخاطب مايدج : « والآن أحسبك لهفان على علبة طباقك أيها الأب ! هيا أيتها الحمامة ... عودى كما كنت ... علبة طباق الأب ... ! » وانسحرت الحمامة فكانت كما أرادها الفتى أن تكون !

وكان القس ينظر مسحوراً ولا ينطق ... ثم تناول علبته فقلبها ، ووضعها حيث كانت ، ولم يرد على أن قال : « حسن ! » . وراح الفتى يذكر تجاربه السابقة ، مبتدئاً بحادث المصباح ... وأخذ القس يهدأ قليلاً مما استولى عليه من الدهش ، فانطلق يقول : « كل هذه غرائب مدهشة ... لا جدل فى ذلك ... مهما يكن فيها من الألغاز التى يصعب تعليلها ... إنها موهبة هذه القوة الكامنة التى تصنع المعجزات ... إنها قوة سادسة كالبصر أو السمع أو الشم ... ومن هنا شذوذها وندرتها ، وحدوثها صدفةً ولأشخاص قليلين ، ولكم عجبت

لمعجزات محمد ويوجى ومدام بلافاتسكى ... ولا جرم أنها موهبة تفرد بها هؤلاء ... وقد كانت دليل المفكر الكبير دوق أرچيل ، وبرهانه الدامغ ، وحجته القاطعة ... وهنا ، يبد هنا القانون العميق الذى يتضاءل بجانبه قانون الطبيعة العادل ... أجل ، أجل ... قل ... قل ... » ... ثم وصل فذرنجاى حديثه ، وأبدى أنه لما لحق برئيس الشرطة المستر ونش من (تمزيعته) فقال : « والذى أهمنى أكثر من أى شىء هو هذا المستر ونش ، الذى أرسلته إلى هيدز أولا ، حتى إذا خفت عليه من نيرانها بعثت به إلى سن فرنسسكو ، وهو من غير شك فيها الآن ، وقد خشيت أن تكون ثيابه قد (تشعوَطت !) فى هيدز فأمرت أن ترسل إليه بذلة تستره وهى من غير ريب قد وصلت إليه ... ولا بد أنه الآن مغيظ محنق مما حدث له بسببى ، بل هو يحاول جهده أن يحصل على ثمن تذكرة ليبحر من فوره إلى هنا ليلقانى ... مسكين ؟ ! إنه يضرب أخماساً لأسداس فى تعليل ما حصل له ... وأنا مثله فى حُجُب كثيفة من عدم إدراكي لما يصدر عنى ! ! » ... وهنا قال القس : « وأنا أيضاً أرى أنك تضرب فى ظلمات لا أدرى كيف تخرج منها ... وعلى كل حال ، فلندع مسألة المستر ونش الآن ، ولنتحر المسألة الكبرى أولاً ... إنى لا أعتقد أن ما يصدر عنك هو ضرب من سحر أو نحوه ، وأعتقد أيضاً أنه لا أثر للجريمة فيما تفعل ... اللهم إلا إذا حاولت أن تحوز ما للغير بهذه الوسيلة ... لا ... إنها معجزات من غير شك ، ومعجزات من نوع راق رفيع ! » وانطلق المستر مايدج يطرى أخانا فذرنجاى ، وفذرنجاى محلق فيه ، مقبل عليه ... أو قل ... ساهٍ عنه ، بدليل مفاجأته للقس بقوله : « ومع هذا فلا أدرى ماذا أصنع لأنقذ المستر ونش ! ! » ، فدهش المستر مايدج وقال : « بما أن لك هذه القوة الخارقة التي تصنع المعجزات فليس أيسر عليك من عمل معجزة تعيد بها ونش ... فاطمئن وهدّىء روعك ... سيدى فذرنجاى ! إنك شخص هام جداً ، وضرورى لإصلاح هذا العالم الشائه ، فهل فكرت فى شىء تسديه إليه ؟ ! » وقال فذرنجاى يجيبه : « أجل ... فكرت فى شىء أو شيئين ... ولكنى كنت أشعر دائماً أنها أعمال مزورة ليس فيها من الحق شىء ... أرأيت الوعاء الزجاجى الذى سبحت فيه سمكات الذهب ؟ ! أمعقول هذا ؟ ! أرأيت سمكاً من ذهب قط ؟! حبذا لو كان حيّاً حقيقة فكنت أنفع به الناس ! » . وصادفت هذه الأمنية هوى فى فؤاد القس فهش للفتى وبش ، وأثنى على نزعة الخير التى عبر عنها بلسانه ، ودعاها سبيل الرشاد ؛ ثم اقترح أن يأخذا فى تجربة قوة فذرنجاى فيما يعود على الناس بالخير ... ونؤثر أن نسجل تاريخ تلك الليلة الهائلة ... الليلة العاشرة من نوفمبر سنة ١٨٩٦ لما تم فيها من الأمور الجسام التي لا يتصورها عقل ، ولا يمكن أن يصدقها أحد ، لأنها لو كانت حقاً — وهى حق لا ريب فيه — قد وقعت ، لجزم القارئ أو القارئة أن فى وقوعها خراب العالم أو موت من فيه من الخلائق على الأقل ... على كل حال ، ليس هنا نهاية القصة ... فليتصور القارئ ما يشاء ... ونقول نحن ، إن فذرنجاى أخذ فى صنع معجزاته بالعشرات حتى تشجع وقوى قلبه ، وذهب مايدج يحفزه ويحرضه ، ويغريه بما هو أخطر . وكانت أولى المعجزات الكبار أن طلب المستر مايدج من صاحبه الشاب أن يحضر له عشاء يُنسيه رداءة

الأطعمة التى تعافها النفس والتى تطهيها السيدة منشن صاحبة بيته ... وهش فذرنجاى للفكرة ، وكان مولعاً بالأرانب الأرلندية فأمر أن يؤتى إليه بطبق حافل بها ، فما هو إلا أن دعا حتى كان أمامه الطبق ، وفيه شواء الأرانب المطلوب ! وقال لصاحبه وهما يلتهمان الطعام : « وبناء على ذلك فإنى أستطيع أن أساعدك فى كل ماله علاقة بمنزلك يا مستر مايدج ! » ... وطرب القس ، وملأ كأسه من نبيذ برغنـد العتيق الذى أمر فذرنجاى فجىء إليه به بطريق المعجزة أيضاً ، وبعد أن تجرعها ، وتجشأ مرتين أو ثلاثاً نظر إلى الفتى وقال : « فكرة والله ! لقد طالما تمنيت أن يصلح الله من خلق المسز منشن قليلاً ، فيذهب بما يشينها وببعض الذى يجعلها قبيحة فى أعين الناس ... ولست أدرى إن كنت تستطيع أن تحدث أنت ذلك ؟ إنها الآن نائمة فى فراشها ، وقد صارت الساعة الآن الحادية عشرة... فهل يمكن ؟ هل يمكن يافذرنجاى؟ » وقال الفتى : « لا أحسب أن هذا شئ غير جائز ، مهما تكن المسز نائمة ! » . وأصدر أوامره فى سكون ، ثم أخذا فى طعامهما وشرابهما كأن شيئاً لم يحدث برغم الثورة الهائلة التى كانت تجتاح نفس القس وتطغى على شعوره ، وتشوقه الشديد إلى معرفة ما إذا كانت المسز ستخلص من مقابلتها بفضل فذرنجاى أم لا ... ؛ ... ولم يطق أن ينتظر حتى الصباح ليرى ماذا تم من ذلك ، بل قام بعد أن فرغ من عشائه السحري ، وانطلق إلى منزله فغاب فيه سويعة ، وظل فذرنجاى ينتظره ، ثم عاد متهلل الوجه بادى البشر ، مفترًا عن ابتسامة مشرقة ، وأنشأ يقول : « مدهش ! مدهش جداً ، وعجيب حقاً ! بعث جديد وحياة جديدة تنسرب إليها من ثقب ضئيل فى باب غرفتها ! تبدل شامل طرأ على السيدة يا فذرنجاى ! لقد هبت من غفوتها ريانة فينانة فأخرجت من صندوقها زجاجة بكراً من النبيذ لتشربها جرعة واحدة ! »

واقترح القس على صاحبه جملة مقترحات عجيبة كانت فى سبيل الخير جميعاً ، فقد انطلقا فى البرد القارس ، وتحت القمراء الزاهية ، عبر ميدان السوق الكبير ، حتى إذا انتهيا إلى القسم البرلمانى المعروف بكثرة فساقه وسكيريه ، شرعا فى عملهما الإصلاحى الجليل ، فانتزع فذرنجاى مافى نفوس أولئك المساكين من خبث ، وأمر فتحولت الخمور التى فى جميع الحانات إلى ماء عذب قراح . ثم انطلقا إلى الخلاء فأمر فذرنجاى برك فلندرز ومستنقعاتها فغاضت فى الأرض ، واهتزت وربت وأصبحت مزارع مبسوطة تزهى بنباتها وبساتينها بعد أن كانت مصدراً من أخطر مصادر الحميات والطواعين . وفى طريقهما إلى المدينة عرجا على محطة السكة الحديدية فأحدثا فيها إصلاحات شتى ، وأقام أبنية شاهقة مكان الأبنية العتيقة التى أصبحت لا تتفق وعظمة الحى التى تقع فيه ... وكان المستر مايدج ينظر إلى هذه الخوارق التى يأتيها فذرنجاى بمجرد الإشارة والإيماءة ويكاد يزيغ بصره ... « ليت شعرى ماذا يقول الناس غداً ؟ لاجرم أنهم سيدهشون وينسبون ماتم إلى شياطين سليمان! » والتفت إليه فذرنجاى فجأة وقال : « أيها الأب ... الساعة الآن الثالثة ، ولا بد لى من أن أذهب فأنام ، فإنى أتسلم عملى فى المشرب فى الساعة الثامنة ... » فنظر إليه القس مسبوهاً وقال : « وكيف ؟ إننا مانزال فى بدء مشروعاتنا يا فذرنجاى تذكر يا رجل أنك تسدى أحسن الأيادى للإنسانية ولصالح الناس ... بل ينبغى أن تستمر أيها الأخ ،

وأن تستكثر من هذا الخير ... أنظر ... ألا ما أجمل هذا البدر وما أروعه ! » . فقال فدرنجاى : « حقاً إنه جميل رائع ! » فوسوس له القس : « أليس من خير الإنسانية أن تقفه حيث هو يا فدرنجاى ؟ ! » فارتجف الشاب وتمتم يقول: « وَىْ ؟ ! أقف القمر عن دورانه ؟ ! هـذا كثير ! » . فقال الأب وقد سحرته الفكرة : « ولم لا أيها الصديق ؟ قِفْـه ! إفعل ! أى خير فى ظلام الليل وكله شرور وآثام ! مره يقف يا فدرنجاى بالله عليك ... إنك تستطيع ما هو أجل من وقف دوران القمر ... وما دمت قد خرقت قانون الطبيعة فلا بد أن تخرق قانونها فى القمر أيضاً ... إنك تقـدر أن تقف دوران الأرض التى هى أعظم منه أضعافاً مضاعفة ... ثم أنت لا تحدث شراً إذا وقفته ، ومادام كل ما تصنع من أجل الإنسانية فماذا يزعجك ... ؟ » ... ... واستطاع الأب الشيطان أن يتلف كل شىء بما وسوس فى صدر الشاب ... ووقف فدرنجاى وقفة رهيبة ولكنها مصممة وزرر سترته ، وسعل سعلة غريبة ، ثم استجمع روحه وإرادته جميعاً ، وحملق فى البدر الفضى حملقة شديدة ثم قال : « قف دورانك أيها القمر بإذنى ! قف ! »

يا للكارثة !

لقد انقذف الأستاذ فدرنجاى فى الخواء انقذافاً هائلاً وبسرعة عشرات الأميال فى الدقيقة ، وذهل عن نفسه لحظة ثم أفاق فرآه يرف فى الفضاء اللانهائى ويزف ويطوى عالم الأثير كما يطويه الشهاب الراصد. وللحال خطر له أن يأمر فيكون فوق سطح الأرض فقال : « لأهبطن إلى الأرض سالماً آمناً ! هيا ! » ولو قد تأخر قليلا فلم يخطر له أن يأمر هذا الأمر لتناثرت ثيابه كلها ، ثم لاحترق جسمه ، وانتثرت رفاته جذاذا ... وهكذا كان حظه حسناً هذه المرة فلقد هبط إلى الأرض فى سرعة فائقة ، فاستوى قائماً فوق كثيب مهيل أعدته له المعجزة فى سرعة البرق لتقيه من الصدمة الهائلة ، ولتنقذه من الارتطام بالحجارة والمعادن الذائبـة التى تشقق عنها سطح الأرض فبرزت من جوفها كالحمم ، وتطايرت عن يمينه وشماله كالصواعق ، بل أشد وأنكى ... ورأى حوله أهوالا جمة ومصائب عاتيات تحدث بالقرب منه ولا يبدى حراكا ... فمن ذلك أن بقرة ذلولاً اصطدمت بإحدى هذه الصواعق فانفجرت وتناثرت أشلاؤها كأنما هى بيضة صغيرة وطئها فيل عظيم.. ثم عصفت حوله الرياح الهوج فبعثرت فى الأرض والسماء شواظاً من حديد ونحاس فوقف مبهوتاً لا يدري أين هو ولا أيان يذهب ... ثم ذكر الله فقال: «رباه ! غفرانك اللهم ! هل أسأت أم عصيت ! إن هذه صيحة كصيحة يوم النشور ! عواصف وبروق ورعود! وقبل دقيقة واحدة كانت القمراء تغمر السهل والجبل والوادى في روعة وبهاء ! رباه ! اكشف هذه الغمة تباركت وتعاليت ! لست أنا الذى رسمت هذا ، بل إنه قسك مايدج هو الذى وسوس إلى ! ولكن ... أين هو ؟ ! يا للورطة التى ألقى بى وبنفسه فيها ! إن السماء صافية ، والكواكب متألقة كما هى منذ الأزل ، والقمر جميل فى أوجه ، فما لهذه الأرض عابسة باسرة هكذا ، وما لهذه الزوابع ! إنى لم آمر أن يكون فيها شىء من ذلك فماذا جرى ؟ ... أوه ! ! أين المدينة يا ترى ... ؟ وأين الجسر ؟ وأين المصابيح التى كانت قبل دقيقتين تنعكس أضواؤها فى الماء ؟ ! » ... واشتدت العاصفة فسقط المسكين يتقلب فى الوحل ، وكلما حاول النهوض عاد فكبا ، وآثر أن يظل على أربع آخر

الأمر ... ثم جعل دبره للريح ، وغطى رأسه ووجهه بسترته ، وعاد يهمهم ويقول : « لا جرم أنه قد حصلت غلطة هائلة ، ولكني لا أعلم ما هي ... »

وأخذت العاصفة تزمجر حوله ، وتنثر الحجارة والأشجار والخرائب فتجعلها ركاما ... ولم يعد يرى المسكين شيئاً من العمار فى الرحب الموحش الذى وقف مختلطاً بين أنقاضه ، ثم ساد الظلام فجأة ، وغاب عنه ضوء القمر الذى كان يسطع منذ هُنيهة ، فتضاعف ذعره ، وتمزقت أعصابه ، ولم يدر ماذا يصنع ...

لقد أمر فذرنجاي القمر أن يقف ففعل ؟ ففيم هذه الزوبعة وذلك التخريب ؟

أوه ! لقد أصدر المسكين أمره الأرادي الجبار ، ولم يتخذ قبل ذلك حيطته ؛ فهو كان يحسب أن وقوف القمر عن دورانه شيء هين لا تكون له نتائجه على الأرض التى يقف هو من فوقها ... ولم يكن يعلم أن هذا الكوكب الذي يقطع فى الساعة الواحدة مئات الأميال إذا وقف فجأة ، صنع ما يصنع القطار بركابه إذا وقف بهم فى أقصى سرعته ... إنه يرضهم إن لم يسحقهم ... فما بال كوكب بأكمله ؟ ... ثم دوران الأرض نفسها ، وهي هذا الكوكب السيار العظيم الذى يقطع فى دورانه حول نفسه أكثر من ألف ميل في الساعة[1] ، فإذا تعرض القمر الذى وقف فجأة لجاذبية الأرض التى تدور أمامه بهذه السرعة الهائلة ، فماذا يكون غير هذه الزوبعة الهائلة العاتية التى مسحت وجه البسيطة مسحاً ؟ ولقد انقذف كل ما كان فوقها — بما فى ذلك القرية (المدينة) وفذرنجاى ومايدج ، وجميع الحيوانات والوحوش والشجر وأعمدة التليفونات وعرائش الفلاحين وكل ما نتأ على سطح الأرض بسرعة تسعة أميال فى الثانية (كذا) أى أسرع مما إذا قذفوا من فوهة مدفع ضخم

ولقد سـدرت نفس فذرنجاى ، وسخط على القوة الكامنة فيه والتي بها صنع كل هذه المعجزات ... ووقف فى هذه الدنيا المنهارة ، وتحت البرد الذى أخذ يرجم وجهه ويحصب رأسـه ، والطوفان الذى بدأ يعب عبابه وتزخر أمواجه ... ولم يدر ماذا يكون من أمره ... ثم رق البرق فلمح موجة عالية كالجبل مقبلة نحوه فى سرعة فائقة فتوشك أن تبتلعه ، فسمع نفسه يصرخ قائلاً : « إلىّ يا مايدج ! إلى ! وأنت أيتها الموجة قفى مكانك ! قفي بالله عليك ! وأنت أيتها البروق ويا أيتها الرعود اهدئى لحظة حتى يثوب إلى رشدى ... أوه يا ربى ماذا أصنع ؟ لشد ما أرجو أن أرى مايدج ... ولشد ما أرجو أن أصلح كل ما أفسدت ... »

وكان قد نسى أن يستطيع أن يقف كل شيء لو أراد ، إذا سلط عليه شعاع إرادته الصارم ، فلما ذكر ذلك صاح مبتهجاً وقال : « أوه ! ذكرت ذكرت ! »

ثم لوى رأسه نحو الزوبعة ، وبرق فيها عينيه ، وهتف يقول : « والآن ، ليفته كل شيء ... لتسكن الريح ... ليصمت الرعد ... ليذهب البرق ... ليدر القمر دورته ... وليعد كل شيء كما كان ... لتذهب تلك المعجزات عنى فإنى كرهتها ... ولتكن لي إرادة عادية كإرادة أى كائن من الكائنات ...

(١) محيط الأرض يقرب من ٢٥٠٠٠ ميل وهى تدور حول نفسها مرة فى كل ٢٤ ساعة ، فتقطع فى الساعة أكثر من ألف ميل كما هو فى سياق القصة أى عشرة أضعاف سرعة قطارات (الاكسبرس)

لا أريد أن يطيعنى شيء ما فى هـذا الوجود ... ليت شيئاً مما حدث من معجزاتى لم يحصل ... هذا ، ولأعد أنا إلى مشرب التنين ، وليكن كل شيء فيه كما كان قبل أن ينقلب المصباح اللعين ... حقاً إن كل ذلك لو تم لـكان خيراً ولـكانت أخرى معجزاتى ليكن كل ذلك حين أقول (هيا) ! ! »

ثم لصق بالأرض وأغمض عينيه وقال بكل ما بقى فيه من قوة :

« هَـيَّـــا »

وهدأت العاصفة ... وعاد كل شيء كما كان !!

وسمع صوتاً بالقرب منه يقول : « هكذا أنت تزعم ... هكذا أنت تقول ! ! » فلما فتح عينيه ، وجد نفسه فى المشرب يجادل صاحبه طودى بيمش فى حقيقة المعجزات ... وشعر كأن إحساساً حاداً كان يستولى عليه ، لـكنه لا يدرى ما ذا كان باعثه

وهكذا عاد كل شيء إلى ما كان عليه ... حتى ذاكرته وعقله ... وحتى عدم إيمانه بالمعجزات ... بل لقد فعل النسيان فيه أفاعيله ... فهو لا يذكر شيئاً مطلقاً مما ورد فى هذه القصة مع أنه بطلها

— إنى مازلت مستمسكا برأيى فى هذا الموضوع فالمعجزات لا يمكن بحال أن تقع ، وأنا مستعد لإقناعك بذلك حتى تنكرها كما أنكرها أنا نفسى !

— هكذا تقول أنت ... هكذا أنت تزعم

— إصغ إلىّ يامستر بيمش ... هلم نتعرف ماهى المعجزة ... إنها شيء يخرق قانون طبائع الأشياء ... إنها شيء عكسى لقانون الحدوث يزعمون أنه يحصل بقوة الإرادة

يتبع

شعلة الوطنية وروح الوطن

شركة مصر للغـــزل والنسج

بالمحلة الكبرى

فاقت بجودة منتجاتها كل إنتاج ســـواها

وتبيعها جميلة متينة بأسعار معتدلة

شركة بيع المصنوعات المصرية وفروعها

وتجار المانيفاتورة بالقطر المصرى

الثائر الساذج

للكاتب الروسي ليو تولستوى
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

كان فيكتور فيد روفسكي ضحية الجواسيس، يتبعونه إلى كل مكان، ويتعقبون خطاه، ويقتفون آثاره، لأنه كان فيما مضى مشبوهاً [1] وكان اسمه فى رأس الأسماء التى تحملها القوائم السوداء، فى مكاتب «أوخرانا» [2] الخفية. وكانت الشرطة السياسية فى موسكو وبطرسبرج توقع العقوبات بالشبهات، فكل مشبوه لديها متهم، وكل متهم فى نظرها مذنب. فلما هاجر فيكتور إلى لوزان بسويسرا ليلتحق بجامعتها حتى يتم دراسة الرياضيات العليا التى بدأها فى كلية الهندسة بمدينة أورالوف شعر بأن وراءه جاسوساً يتبعه، وكأنه صحبه من حدود روسيا إلى صميم سويسرا فقال محدثاً نفسه: لن أصبر على هذا الرجل ولن أدعه يقتفى أثرى فى بلاد الغربة، ولا بد من أن أرغمه على الاعتراف لى بعلة تتبعى، وأذكره بأننا فى جمهورية حرة، ولسنا فى شوارع موسكو أو بطرسبرج، وأن أتهدده بكشف القناع عن حرفته أو أرفع شكواى إلى رياسة الشرطة، محتجاً بتحريم التجسس على الأبرياء فى بلد أجنبى. فإذا ما خشى الفضيحة وهرب من وجهى عدت أدراجى إلى محطة السكة الحديدية حيث تركت فيها متاعى لأتسلق سلم المركبة الأولى التى تصادفنى فى أول قطار يحملنى إلى مقرى ومرتعى ... إلى مدام جابونسكى، إلى أحضان تلك المرأة الحنون، فإذا ماسألتنى عن عودتى غير المنتظرة، بعد القلق المقيم المقعد الذى ساورنى قبل عيد الفصح أجبتها فى إيجاز بأننى رضيت من الغنيمة بالإياب لأننى ما كنت أستطيع البعد عن بيتى. فقد اكتشفت فى هذا السفر القصير أننى مصاب بداء الخوف كالسنور الذى يعلو ظهره وتنتفخ أوداجه وتبعث أعصابه المهتاجة بشعره الناعم، فيصير كالشوك، ويتحفز للهجوم على غريمه كائناً ما كان

(٣)

تعريف بالقصة

من بين الناحيات الخطيرة التى تناولها تولستوى بقلمه ناحية النظام الشاملة لأبناء أمته. التى تجسمت فى مخيلته المخصبة فأنتج آثاره الخالدة: «المشنوقون السبعة» و«لم أعد أطيق على السكوت صبراً» و«الثائر الساذج» التى تنقل إلى العربية للمرة الأولى. وقد كان مخطوطها بين الأوراق التى حملها تولستوى فى فراره مع ابنته كاترينا وصديقه الدكتور جولينشوف، قبيل وفاته بأيام معدودة، وقد اعتبرها النقاد جزءاً من وصيته إلى شعبه، فعنى بها وأحلها من الأدب الرفيع أعلى مكانة، وكأن الأقدار أبت إلا أن ترفع الحجاب عن بصيرته فتحققت نبوءته بزوال الحكم القيصرى بعد وفاته بسبع سنين، ولا يزال جمال الخفاء الروحى المرفرف على صفحات هذه القصة الخالدة دليلا على قدرة الكاتب الثاقب البصيرة على اختراق حجب الغيب فى أسلوب رائع جمع بين دقة التصوير وجلال الفن القصصي

(١) الشبوه في الأدب الروسى هو المتهم بالثورة على حكم القيصر

(٢) إدارة البوليس السرى السياسى فى روسيا القيصرية

لينشب فيه أظفاره التي تخفيها كفه اللساء ، لقد حاولت أن أضلل الجاسوس ، ولكن ذهب تدبيري سدى .

وبعد فإنني أعود أدراجي لأن بالمكان الذي وصفوه لإقامتي سجناً كبيراً ومشرحة . أما السجن فلا عجب ، لأن بأطراف المدن وبضواحيها قد تبنى السجون ؛ أما المشرحة فما شأنها في جوار هذا المنزل ، وفي مثل هذا اليوم الشديد القيظ كأنه من أيام جهنم ؟ يا له من يوم له ما بعده !

كنت عدوًّا دائماً لمن يخضعون للأقدار ، وأسخر من الذين ينصحون بالاستسلام للقضاء المحتوم وأرميهم بالجبن والعجز والخور ؛ وهأنذا قد لعبت بي أيدي الأقضية والأقدار كما تلعب الأطفال بالكرة... فكيف المفر ، وإلى أين الهرب ؟ ليس لديّ من الوقت ما يكفي لتقليب الفكر وتدبير الأمور على على مهل ، ولم يَعُدْ في صدري متسع للصبر والتأمل . فوطدت نفسي على الحرب التي لا هوادة فيها ولا رحمة ؛ وكان الجاسوس لا يزال قابعاً في مقعده بمركبة القطار ينتظر مغادرتي إياه ليتبعني متابعة الظل ، فلم أستطع أن أخيب أمله إلا بطريقة واحدة وهي أن أبقى في القطار لأعود به ، متظاهراً أنني ما قصدت من هذه السفرة المتعبة الطويلة إلا الارتياد والاستطلاع ... وهذا أمر جائز ومباح ، خصوصاً وأنا خالي الوفاض ، فلا متاع ولا أحمال توهم أنني كنت قادماً للإقامة ؛ وكانت السلامة مكفولة بهذا الحل السريع المنقذ ، ولكن كرامتي أبت عليّ التسليم ، وكراهتي للرجل دفعت بي للنزال ، فجمعت نفسي ونهضت ونزلت ، فنزل الجاسوس ، ومشيت فسار ورائي يتعقبني ... وقبل أن أستدير لأشتبك معه معاركاً وأنا لا أعلم مدى ما تؤدي إليه المعركة ، إذا بالرجل الذي ظننته جاسوساً محترفاً يقف فجأة ويقول لي : ڤيكتور ! ڤيشنكا ! ... داسكويا ... ! ڤيشا ... ألا تذكرني ؟ ألا تعرفني ؟ وكانت هذه كلها ألقاب تعزيز وتدليل يناديني بها رفاق الصغار في المدرسة اقتداء بمربيتي وخادمي في تدليلي

وكان الرجل يخاطبني بالروسية الفصحى ، أيكون الكسندر براڤسكي ، أم خياله الحي ؟ فوقفت على سلم القطار وقلت له : من تكون أنت ؟ قال : أنا ... أنا ساشا براڤسكي ، براڤسكويا ... ألا تذكرني ؟ وارتمى المسكين في حضني وهو يبكي ، فلقد غادر البائس بيت الموتى ... سجن سيبيريا منذ حين هارباً من أيدي أعدائه وأعدائي . كان ساشا قرويًّا ابن فلاح ، دخل في خدمة مثّال اسمه بوريا كلامسكي ، لا يزيد أجره على روبلين يتقاضاهما في كل أسبوع ، وما لبث الصغير أن أظهر ميلاً تشُد أزره موهبة فائقة مولودة معه ، فكان يحسن الحفر في الخشب وتأليف الألوان الزاهية والقاتمة لصبغ تماثيل العذراء ويسوع والقديسين ، وبرع في إظهار علائم الحزن وأمائر الانقباض أو الفرح التي تبدو على وجوه الشهداء كما كان يراهم في كنائس المدينة ، وكان المثال يبعث به إلى الأسواق والموالد ليبيع تهاويل الرسل والملائكة ، فيجلس ليبسطها بين يديه على قطعة من القطيفة الباهتة ، ثم يبقى في انتظار هواة الإيمان ممن لا يضنون على أرواحهم بكوبك [1] أو اثنين ليشتروا بهما رمز معبود أو نصف معبود ! ليزينوا

(١) كوبك عملة روسية تعدل قرشين صاغاً

بها حجراتهم القروية ويشعلوا تحت أقدامها قناديل الزيت التقليدية ...

فكان الموجيك من أهل القرى يرد السوق فى حفل من أهله وجيرانه ، فإذا فرغ من البيع والشراء والأكل والشرب واللهو البرىء أو غيره ، طاف بأطراف السوق حتى إذا ما لمح « فرش » الأرباب والملائكة ، وقف على رأس الغلام ولمس المعبود بقدمه سائلاً عن ثمنه ، فاذا علمه ماكس ما شاءت المماكسة حتى يصل إلى الثمن الذى يرتضيه فيلتقط التمثال الذى وطأته قدمه ، فيقبله ويضعه فى جيبه بحرص وعناية ، ثم يخرج قطعة الفضة الصغيرة وينقد الصبى ثمنه وينقلب إلى أهله حاملاً تمثال ربه فى ثنايا « كازاكه »[1]

وكان ساشا الصغير يعجب لهذا المسلك ويضحك ثم يأسف على فنه الضائع بين هذه القطعان الشاحبة الكالحة التى تعد من بنى الانسان وليست منهم . ثم أخذ يثور على الديانة التى تحتسبهم من تابعيها وعلى الكهنوت الذى يصبر على عمايتهم ويستغل ما هم فيه من غفلة بالغة . وما انقضت عليه ثلاثة أعوام بين المصنع والأسواق حتى شكا إلى أمه ما يلاقيه من ألم النفس وتعب البدن ، طالباً إليها أن تحثّ أباه على إرساله إلى المدرسة

فصممت الأم على تنفيذ رغبته ، وقرّعت الوالد على رضائه بأن ينشأ طفلهما على هذه المهانة وهاهو ذا قد نما وترعرع ، ومارس الصناعة والتجارة ولم يفد منها مالاً يذكر ، لأن جهوده عائدة كلها على معلمه بوريا الذى لم يُعلمْه إلا ما رآه ملائماً لمصلحته الخاصة ، فلا بُدّ من إرساله فى بعثة تعليمية إلى بطرسبرج ليتلقى الفنون الجميلة فى « مجمع المصورين القيصرى » ويتردد على متحف إرميتاج الشهير بآثاره الغالية . سافر الوالدان والولد إلى بطرسبرج فى قطار الليل بعد أن تزودوا للسياحة واستقروا فى فندق وضيع في حى « إيليانا » وهو خطٌّ المفلوكين ، ومرتع « البوهيمية » والنوَر ، لأن ما حملوه من المال المدخر لا يقوم بأودهم أياماً معدودة إذا هم اختاروا الاقامة فى أحد الأحياء الغنية . وبعد يوم من وصولهم ذهب الرجل وولده إلى دار الفنون الجميلة وعرضا طلبهما ، فقوبلا بالازدراء من الموظف المختص ، وقد دهش لجرأتهما على ترك الفلاحة فى الحقول لالحاق الولد بمعاهد التصوير والحفر ! فحنق براڤلوف والد الكسندر (ساشا) برافسكى على « الموظف المسؤول »

وخرج يتحامل على نفسه ، وصفق الباب وراءه صفقة كانت أشد وقعاً من الصفقة على صدغ الموظف الكبير ، وقد عقد النية على أن يلحق الفتى بالأكاديمية ولو أدى الأمر به إلى بيع أرضه وإنفاق آخر كوپيك من ماله وعقاره فى هذا السبيل ، وعاد إلى الفندق حيث كانت الوالدة المسكينة فى انتظارها ، فدفعه غضبه وكرامته المجروحة إلى أن يروى الحديث بحذافيره عليها ، وختمه باظهار رغبته التى تتردد فى صدره ، وكان صوته يتهدج ويداه ترتجفان حتى خشيت الأم (ناديا سيپيانا) عليه أن يصيبه سوء أو ينفجر شريان فى دماغه ، فيذهب ضحية الفالج نتيجة حبه الخير لولده ، فبكت وأجهشت وقبلت يد زوجها وطيبت خاطره ولكنها أبت أن يكون ولدها سبباً فى فقرها ، وهى التى تعلم أنه ليس من الغنى بحيث يحقق أمنيته وأمنيتها

(١) سترة طويلة لا تفتح من صدرها

بيْد أن الفلاح العنيد سعى فى الأمر دون علمها ، وكاد المسعى يكلل بالنجاح لولا أن علم به الموظف المسؤول بادارة الفنون ورفع إلى « المراجع العليا » مذكرة نفث فى دسمها سموم حقده ، وألقى ظلالاً من الشك على هذا الصنيع فأفشله ، فسافرت الأم مكسورة الخاطر ، موجعة القلب ، ناقمة على الدنيا ، واستمسك الشيخ بعزيمته لترقية ولده ، وسعى إلى توظيفه أولاً فى إدارة صغيرة كان رئيسها قريباً له ، بوظيفة لا يزيد مرتبها على عشرين روبلاً فى الشهر (١)

وقال له : « ساشا ! ولدى العزيز ! لاتمس هذا المرتب ، بل ادخره بأجمعه وإن شئت فابعث بقليل منه إلى والدتك ، لا على أنها محتاجة إليه ، ولكن لتشعر بأنها تشرب قدحاً من الشاى من عرق جبينك وكد يمينك ، فيكون له طعم ونكهة لا يعرف حلاوتهما إلا من كان فى براءتها ونقاوة قلبها ، أما البقية فأنفقها فى شراء الألوان والصور وأجور التعليم الليلى . أما مأكلك ومشربك ومسكنك وملبسك فأنا الكفيل بها . وتعلَّمْ ما استطعتَ ، وزاول من الفنون الجميلة ما شئت ، فإن لك يوماً ينتظرك فى الأكاديمية الإمبراطورية ؛ وإن جدران الارميتاج تنتظر لوحاتك بفارغ الصبر »

ولم يكن من ساشا إلا أن بكى وشكر أباه وقبل يده وهو يقول فى نفسه : يالها من حياة كالموت ! وربح خير منه الخسارة ! لقد ضاع حظى فى هذه الوظيفة ، ولكن من يدرى ؟

ولم يكن له أن يرضى من الغنيمة بالبقاء فى العاصمة ، يعيش حيناً فى كنف قريبه الموظف فى الحكومة وآناً يحفزه الشباب للوثب والمغامرة فيأوى إلى نُزل صغير فى حى نيكولسكوى لقربه من الدواوين وبُعده عن مركز الثراء والزهو فى العاصمة حيث مراتع الغزلان ، ومواطن الفتنة ، ومعارض الزينة الرائعة ، ومظاهر الغِنى والنشب ، وكان لأول عهده ببطرسبرج (وهى دنيا عريضة بالنسبة لأورالوف وعاصمة المقاطعة الشاملة لقريته) يدهش لما اجتمع لأهل هذه الحاضرة من أسباب الترف ، ودواعى الاسراف والتبذير ، ومختلف المُتَع التى لا تنازعها إياها أية عاصمة أخرى

وكان إذا قادته قدماه إلى الأحياء الراتعة فى الثراء يتحرق على نعيم الدنيا الذى يرى آثارَه المغرية فى العجلات الجارية والسيارات المتسابقة ، والشوارع الرحبة ، والمخازن الحافلة بأنواع المتاجر ، والحوانيت الزاخرة بثمين الحلى والجواهر ، والمآثر العالية ذات الطبقات المعدودة ، والحدائق الغناء ، والظلال الوارفة للأشجار المنضدة ، والمغانى الآهلة بالغوانى ، والمراقص المرددة لرنات المثالث والمثانى ، ويرمق بعين الدهشة جماعة المياسير الذين اتخذوا من الحياة تلهية ، ومن أسباب المسرات وسيلة لمدافعة الملل وإيقاظ الشهوات التى رانت عليها التخمة والسآمة فزهدوا فيها وتعلقوا بها فى آن ، يأكلون من الأطعمة أشهاها وأحلاها ، ويعيشون أرغد الحياة وأترفها ، معافين فى أبدانهم ، لا يأخذهم حر ، ولا يزعجهم برد ، ولا يعوقهم عن السعى إلى ملذاتهم مطر ولا رعد ، إن أدركتهم علة فالأطباء والصيادلة لديهم يحضرون ، وإن طاف بهم طائف الضجر فألف وسيلة تطرده عنهم وهم لاهون ، يسيرون فى الأرض مختالين فخورين ، يكادون يهتفون بالناس

(١) الروبل عملة روسية قديمة قيمتها إثنا عشر قرشاً

« أن انظروا ! وسبحوا وإن شئتم فاحسدوا » متوهمين راحة الضمير وقرة العين بما قسمه الحظ لهم من صنوف المنح على رغم أنوف الحاقدين والمحرومين...

ولو أن ساشا برافسكى كان من معدن غير معدنه لسخط وحقد ، ولاتهم الزمان والمكان والناس بأنهم سبب ما يعانى من حرمان وفقر ؛ وساءه أن أمه المسكينة كانت ترجو أن تباهى به العاصمتين[1] وهى جاثمة فى كسر بيتها القروى . ولو أنها رأته الآن لانزوت خجلا من بساطة شأنه وهو يطوى شوارع المدينة الكبرى على قدميه صباح مساء ، وأعظم منه شأناً فى نظره تلك النحلة الواقفة على زهرة فى غابة لفاء تبحث فى حناياها عن رزقها المقسوم . وفى تلك اللحظات كان يتذكر ماضيه القريب وحياته فى حضن والديه وأحضان الطبيعة الساذجة ، والأحلام التى كانت تداعب مخيلته الفتية وترسم أمامه مستقبله فى معاهد الفنون كأحد طلابها النابغين ، وكان قليل الذهاب إلى الكنيسة ، ولم يجد فى العاصمة ما يغذى فى نفسه عاطفة الدين

وقد كان أصدقاؤه الأولون من طبقة الموجيك مؤمنين وفى قلوبهم ذرة من الجحود الذى سببه الفقر والجهل ، أما أصدقاؤه فى العاصمة فملحدون ، وليس فى قلوبهم شعاع من الإيمان ! وكان فى وسعه أن يغشى دار قريبه ، حيث يلقى الترحيب والاكرام ولكنه كان من التعفف والإباء بحيث يعز عليه أن يفطن أحد من أقاربه إلى سوء حاله . ومن هنا تعرف الكسندر (ساشا) بطائفة من الشبان الذين ساعدهم الدهر بالانضمام إلى صفوف الأكاديمية ، والفتيات اللواتى تحرّرْن وغلبن آباءهن على أمرهم وأقنعنهم بمشاركة الشبان فى اجتناء ثمار العلوم العالية وتلقى العلم معهم على أستاذ واحد فى صفوف الجامعة

وفى اجتماع للطلاب والطالبات التقى بدليانا التى كانت تعاشر كهلا من كهول الثورة على مضض ، وكانت إذا التقت بساشا فى حضرة الكهل لا تعير حديث عشيرها سمعاً ولا وعياً ولا لفتة ، مندفعة فى الاستيلاء على لب الشاب الفنان بحديثها الجذاب الذى كان ينصت إليه فلا يفوته من تعاريجه والتوائه حرف واحد ، وفى تلك الفترة كان ساشا قد أخذ بأهداب الفن وعرف لدى أساتذته بحسن الذوق ، ودقة البصر ، والقدرة على تمييز الألوان ، وخلط الأصباغ ، ولكنه أبى أن يدخل الامتحان أو يعرض لوحاته . وكان يتقزز كلما تذكر الموظف الكهل ، ذلك السخيف الذى حرمه الالتحاق بالأكاديمية . وكان أبوه يبعث إليه بالرسائل ، ويأخذ عليه المواثيق أن يحتفظ فى قصره المأمول بمكان رحب ليصون فيه شيخوخة أمه من الفقر وذل المسغبة .

والأم تكتب إليه خفية أن يسرع فى إتمام عمله ليربح منه ما يكفى لإراحة والده المكدود من تعب السعى على الرزق والإكباب على الأرض التى تجودُ حيناً وتماطلُ أحياناً . فكان الولد يعد والديه وهو حانق ، لأنه ما زال فى رحاب الفن يؤمل أن يملك ناصيته ولو بعد حين . أما المرأة التى تعرفت إليه وأعجبت بفنه فقد استهوته وخدعته وحسنت له أن يوزع بين أقرانه رسالة أدبية ، وكان الكسندر سليم القلب حسن النية فلم يعلم ما تحويه الأوراق التى قبل تفريقها ، ولم تكن سوى المنشور الذى

(١) بطرسبرج وموسكو

أدى به إلى الخروج من العاصمة مكبلاً بالحديد إلى سجون سيبريا الموحشة وما زال ساشا يحفظه عن ظهر قلب كأنه إصحاح من العهد القديم ، يتلوه على مهل ، وأخذ يلقيه على مسامع صديقه فيكتور فيدورفسكي الذى أنصت إليه : « عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود سوف يتلو أبناء الأجيال المقبلة صفحات من تاريخها تقطر أسطرها دماً ، لأنها كُتبت بالخناجر فى لحوم الرجال ، ولا سيما العظماء منهم الذين دافعوا عن أوطانهم ضد المظالم الصارخة ، ووقفوا وجهاً لوجه حيال الدوقات (١) أهل الغدر والخنا

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود ، ويَحْشُر الحقُّ جل شأنه كل تلك الأمم فى يوم العرض العظيم ، ستبعث بعض النفوس سوداء كالفحم ، لأنها أبت أن تخرج من الدنيا إلا وقد أساءت إلى من أحسن إليها واستكبرت !

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود سيُكشَفُ للذين سمعوا بمجدها ، وقرأوا بدهشة الاعجاب ، عن أخلاقها المزجاة ، وفضائلها المزيفة ، وعظمتها الكاذبة تلك العظمة القائمة على الباطل فأنهم سيعلمون أنهم كانوا من المخدوعين ...

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود سيعلم الذين شهدوا وأحفادهم مصرعها أن الله قد أهلك أكبر دولة بناها الشيطان واستعان فى بنائها بكل القوى الكامنة فى الظلام المرعب المخيف ، تلك القوى التى لبست وجوه الخفافيش لتخفى وراءها نجاسة الأجيال ، ورجس أعوانه ، وقسوة الضوارى الجائعة ، وإن الشيطان الأكبر بعد أن شاد هذا البناء المهول ودعمه وزينه وجمّله نصب أعواد ملاعبه لتابعيه ليلعبوا أدوارهم فلعبوها ، ولكن أنصاف البشر الذين شاركوهم تفوقوا عليهم وسبقوهم واختلقوا صنوفاً من الشر وألواناً من الأذى عجز عنها أعوان الشيطان فغضب إبليس وهدم البناء على رؤوس ساكنيه

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود ستفضح قوة القوى المسيطرة على الكون أسرارهم وتنشر بين أيدى الملأ أخبارهم التى دونوها بأقلامهم ونطقت بها ألسنتهم ، وتأتى أيديهم وأعينهم وجوارحهم شاهدة عليهم

« عند ما تزول القيصرية من الوجود سيترحم الملائكة والناس على الذين نبذوهم وأبغضوهم واحتقروهم واضطهدوهم وطاردوهم لأنهم ضحايا تلك الدولة وفرائسها البريئة ، فلا توجد حيلة ولا مكيدة ولا خبث ولا حبالة ولا فخ ولا نفاق ولا دسيسة إلا ووردت سجلات تاريخها المشؤوم

« لقد كان (المنبوذون) من أبناء الشعب عيالاً عليهم فى طمعهم وجشعهم ولؤمهم فتجسدت هذه الفظائع فى أرواح قادتهم وساستهم وزعمائهم ، فلم تعرف قلوبهم الرحمة ، ولم تذق نفوسهم الحنان ... يصفون العدل والحرية والمساواة كأنهم يشعرون بها ، ويتخذونها تُكأة ومسنداً للموجبك البائسين فى عزلتهم

« عند ما تزول القيصرية الظالمة من الوجود سينادى منادٍ فى السماء وفى الأرض : « ألا إنّ الأرض قد طُهرت من المظالم التى أهرقت الدماء

(١) سادة روسيا القيصرية دوقات وغراندوقات

البريئة . ألا إن الأرضَ قد طُـهِّرَت من المظالم المفضوحة . ألا إن الأرض قد طهرت من النفاق والعدالة المزعومة . ألا إن الأرض قد طهرت من إجرام السياسة ورجس الحياة الملوثة ومنكرات المجتمع . ألا إن الأرض قد طهرت من النفاق الأسود والخبث الأصفر . ألا إن الأرض قد طهرت من اللصوصية المزوقة والخيانة المستخفية والغـدر المتدسّ في زوايا الخديعة . ألا إن الأرض قد أنقِـذت من الـكذب المتغلب الذي قتل الصدق وضربه على أم رأسه بهراوة الباطل فصرعه وولغ في دمه ...

« ألا إن الأرض قد خلت من مظاهر الدعوى بالفخار الـكاذب والخداع الذى طال أمد حكمه وفشا ظلمه وتحكمت إرادته في ضمائر الشعب المغلوب على أمره

« ألا إن الأرض قد نظفت من التزوير والحنث في الأيمان والوعود الـكاذبة

«ألا إن الأرض قد نجت من الوعود الباطلة التى سموها « كلمة الشرف »

ألا إن الأرض قد طهرت من قطاع الطرق في البر والبحر الذين لبسوا القبعات العالية وتقمشوا بالثياب الغالية ، وأخفوا أيديهم الملطخة بالدماء بقفازات من جلود ضحاياهم في قلعة بطرس وبولص ، وفي سجون سيبريا التى يكتنفها الجليـد من كل حدب وجانب »

كان ساشا يتلو من الغيب كأنه يقرأ في صحيفة مفتوحة بين يديه ، لا يقف ولا يتلعثم ولا ينسى ولا يخطئ ؛ حتى لقد ذهل ڤيكتور فيدوفسكى مما تلاه صديقه القديم ، ولـكنه لم يستطع أن يقف تيار حديثه الجارف فقال له :

« وكيف استظهرت هذا كله ؟ »

قال : عمراً طويلاً قضيته في سجون سيبيريا ، كنت أتلوها صباح مساء ، حتى لقد جعلتها صلاتى لأنها سببت شقوتى وسجنى . أما المرأة دليانا فقد شنقوها ، نعم شنقوها في بطرسبرج ، وأما والدتى التى كانت تنتظر البر والخير على يدى فقد ماتت ولم تذق منهما شيئاً . والآن ها قد عثرت بك لتحملنى إلى ... السجن أو إلى القبر الأبدى . واغبرّ وجهه ، وارتعدت فرائصه ، ووقع على الأرض ميتاً ، فلم يكن سلامه إلا وداعاً ، وحديثه إلا نذيراً بدنو أجله . وكان مصيره إلى ... إلى المشرحة ...

محمد لطفى جمعة

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

أعصاب

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب جورج سليستي

رَجَتْ « مدام فاكسين » قرينها المهندس أن يأذن لها بزيارة كنيسة « السيدة » في (ترويستا) ليلاً ، وفاء لنذر ، على أن تعود في الصباح الباكر فلم ير بداً لدى إلحاحها من أن يلبي طلبتها وينزل عند رغبتها ، ولم يجد هو بعد ذهابها مندوحة له من قضاء أمسيته عند أحد أصحابه فراراً من وحشة العزلة في منزله المنفرد ، وتزجيةً لوقت يلذ فيه السهر ويستطاب السمر

ولقد شاء طالعه المجدود أن يكون المنزل الذي أمّه غاصاً بالساهرات والساهرين من الأتراب والأحباب ، يتساجلون في فنون من غير تيه ، ويتطارحون الحديث سمحاً لا تكلّف فيه ، وما عتم بعد أن اطمأن به مجلسه أن ساهم معهم في فنون القول ، وخاض معهم في كل بحث ؛ ولما أثارت إحدى الغانيات مسألة قراءة الأفكار ، وتحدثت عن استدعاء الأرواح ، راح هو يتدفق في كلامه عن الأرواح ومناجاتها كالخطيب المصقع ، ويروي لهم شتى الأحاديث عن اختبارات كبار العلماء في هذا الفن وآرائهم فيه ، وعن تجاربه الشخصية التي قام بها بنفسه ، وأبى إلا أن يقرن القول بالعمل ، فطلب كأساً وخواناً ليجري عليهما تجربة أمامهم تأكيداً لما قال ، وإثباتاً لما روى ، وإن هي إلا لحظات حتى كان الأوانس قد تألبن حوله وساورنه وحتى كان الصحاب قد اندسوا بينهن حياله وكلهم يرنو إليه بطرف سادر لا يحير ، ويترقب حضور تلك الروح التي كان قد همّ باستدعائها من علياء سمائها بتمتمات إن أدركوا أقلها فاتهم إدراك جلها ، وغمغمات ما تبين أوائلها حتى تغمض أواخرها ، ولما عيل صبرهم أو كاد لفظ اسم المرحوم عمه بصوت خافت ملؤه الضراعة والتوسل ، وطلب إلى روحه المرفرفة في فضاء اللانهاية أن تنحدر من سمتها الرفيع إلى مجتمعهم الوضيع ، وأن تتنازل فتجيب إن كانت ترى مانعاً يحول دون تسجيل منزله باسم زوجته غداً قبل أن يدهمه الموت المفاجىء نظراً لعلة ضعف القلب التي ألمت به منذ أمد بعيد واستعصى على الأطباء علاجها

وساد الصمت الرهيب ارجاء الثوى في فترة انتظار الجواب العتيد ، ولم يلبثوا أن سمعوا جميعاً صوتاً يكاد يكون همساً إلا أنه واضح النبرات يقول: « إن كل شيء حسن في أوانه » فأدهشهم ما سمعوا وكان له في نفوسهم أثر بليغ

وانتقل بعد ذلك الحديث من مناجاة الأرواح إلى شخوصها وبروزها ، فكان للأوانس في هذا الباب القدح المعلى ، إذ طفقت هذه تذكر كيف

تراءت لها روح أبيها ماثلة على الحائط بشكل يهول الرائى ويرعبه فى ليلة من الليالى الماطرة القرة ، وقد نبا بها مضجعها ، وانتفى الكرى عن مقلتيها ، وكيف أن الروح اتخذت أوضاعاً مختلفة على ضوء السراج الخافت الموضوع أمام صورة العذراء حيال سريرها مما روّعها وأثار مخاوفها ؛ وراحت تلك تقص عليهم ما سمعته عن القصر القديم المهجور من روايات أقل ما يقال فيها إنها تشيب الوليد ، ويقف لها الشعر هولاً ورعباً ، وتساءلت عن مدى الحقيقة فى تلك الأقاصيص ؛ فانبرت لها عانس شوهاء انطلقت تثبت أن للجن وجوداً ، وأن الأرواح كثيراً ما تتراءى إما بهيئات وحوش ضارية أو أناسى لا تملك رؤيتها المشاعر فحسب ، بل كثيراً ما تعقل اللسان وتكمّ الفم وترمى المرء بعد ذلك بمرض عضال لا برء منه ولا شفاء ؛ وأن المقابر مراح الجن ومغداه ، والويل ثم الويل لمن تحدثه نفسه أن يجوس بين الأضرحة فى ليل حالك الأهاب فالطامة الكبرى من غير بدّ واقعة عليه

وهنا تطوع أحد الحاضرين للحديث ، لا ليزيد فى متعة الأحاديث بل فى رهبتها ؛ وكان إلى تلك الآونة منصتاً إلى ما يقال دون أن يتكلم ، فراح على ذكر الأضرحة والمقابر يروى قصة فتى غيسانى الشباب مات على ما تراءى لأهله وبناء على ما أثبت الطبيب ، فووري الثرى بين الآهات والعبرات ؛ إلا أن عابرى السبيل حيال المقبرة سمعوا مساء اليوم الذى دفن فيه صوتاً خافتاً كخرير المياه فى جوف وادٍ سحيق بعيد الغور ، فدفعهم حب الاستطلاع إلى تقصى الأمر واستجلاء كنهه ، فدخلوا المقبرة وطافوا بين الأجداث متتبعين مصدر الصوت المحتضر الرهيب ، فلما بلغوا ضريح ذلك الفتى المنكود أدركوا الحقيقة المرّة ، فهرع بعضهم ينبئ دائرة الشرطة وانكفأ البعض الآخر على القبر يحفره ويرفع ما هيل على التابوت من التراب

ولما أقبل رجال الشرطة كان هؤلاء يعالجون النعش لرفع غطائه ، فأمر القائد الشرطى أن ينسحبوا من الحفرة وأن يعالج النعش بالفتح اثنان من رجاله . فخضع هؤلاء للأمر وتقدم الشرطيان لفتح غطاء التابوت ، وما كادا يرفعانه معاً حتى رفع الدفين الحى رأسه وأرسل صيحة مدوية تركا الغطاء على أثرها يقع عليه ، وأغمى عليهما .

وأقبل الحاضرون لنجدتهما ، على حين تقدم الباقون لرفع غطاء النعش مرة أخرى ، بقلوب واجفة ووجوه مصفرة ذهب بلونها هول الموقف الرهيب !

ولشدّ ما آلمهم مرأى ذلك الفتى المسكين ، مجروح الرأس ، مخدّد الوجه من آثار أظافره التى أعملها فيه ، جاحظ العينين ، أزرق الأديم ممزّق الكفن . وعبثاً حاولوا إيقاظه ، فإن البائس كان قد لفظ آخر أنفاسه ، وكانت صيحته الأخيرة أمامهم آخر اختلاجة فيه ، فيا للفتى الموءود !

وما بلغ الرجل من روايته هذا الحدّ حتى كان بعض الأوانس قد امتقعت منهنّ الألوان واكفهرّت الملامح ، ودقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فنهضوا جميعاً يودع بعضهم بعضاً ، وإن هى إلا دقائق معدودات حتى انفرط عقدهم وارفضّ جمعهم ومشى كل إلى طيّته ونفسه تزخر بشتى الأحلام والرؤى ، إلا أن فاكسين كان أشغلهم بالاً بالجنّ والأرواح ، فعاد إلى منزله المنفرد

وصورة ذلك الفتى المنكود الذى دفن حياً ما تزايل مخيلته ، وأوى إلى فراشه وخيال الجثة لم يبرح ماثلاً أمام عينيه

قال فاكسين فى نفسه : « إن الحياة لتزخر بالغرائب ، وإن في الوجود من المخاوف والروّعات ما لا يلمّ به عدّ ولا يدركه إحصاء ، ولكن الرجل من كان حديد الإرادة ثابت الجنان ، فليست الجثث هى التي تخيف وإنما هو المجهول الغامض ؛ وأنا ما كنت فى يوم من حياتى جباناً ولا رعديداً ، ولن يعرف الخوف إلى قلبي سبيله ، والآن .. فلأنم ؛ فقد آن لجسمى أن يستوفى قسطه من الراحة »

ووفقاً لقراره هذا أغمض عينيه ، وحاول أن يغفو ، إلا أن النوم قد جفاه ، وسعى لينزع الأوهام من خاطره ، إلا أنها كانت تكتنظ فيه وتتراكم عليه قاتمة سودا

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ومازال الرجل يراوح بين جنبيه لعله يجد النوم فلا يسعده طالعه ولا ينال مأمله

وأطل برأسه من تحت دثاره فوقع نظره على رسم عمه الفقيد الذى ناجى روحه منذ ساعة ، لا يكاد يضيئه شعاع السراج الضئيل الموضوع أمام إيقونة العذراء فى أقصى الغرفة ، وما عسى أن يضيء هذا النور الشاحب التراقص أبداً أمام حفيف النسيم الناعم ؟ !

وتساءل فاكسين عما ينتابه لو ظهر له خيال عمه حينذاك ؛ غير أنه لم يلبث أن طرد هذا الخاطر المزعج من رأسه لأنه على مارأى بعيد الاحتمال إن لم يكن مستحيلاً ، لا سيما أن شخوص الأرواح لا وجود له إلا عند الواهمين ، وليست رؤى الجن إلا ثمرة العقل المخبول وأين حق له أن يسخر من رفاقه إذ يوهمهم أنه يناجى الأرواح ويستدعيها فتهرع إليه ، إنه ليس من الحكمة فى شيء أن يسخر هو من نفسه فيؤمن بما يثق كل الثقة من بطلانه ، أو يعتنق مبدأ يعده لغواً وهراء وشعوذة

تلك هى آراؤه التى كانت تجول فى فكره ، ولكن ما قيمة هذه الآراء ما دام الواقع يدحضها عنده وينفيها ، وما يجدى المرء اعتقاده أن شخوص الأرواح وهمٌ على حين يكون هو نفسه فريسة هذا الوهم ، لا يقوى على الإفلات من عقاله أو الانطلاق من إساره ؟ !

وراح فاكسين يحاول أن ينجو من براثن الأشباح ، فكان يغطى رأسه كله بدثاره ويطبق عينيه بشدة ويرغم نفسه على النوم إرغاماً . غير أن الأشباح كانت ما تفتأ تتخطر أمامه ، والرؤى لا تنفك غادية رائحة أمام باصرتيه ، والنوم شريد أنأى ما يكون عن عينيه

ولقد مثل له خاطره المروع رسم الدفين الحي يتقلب فى نعشه ، وتراءى له ساعياً ينفض عنه الأكفان فيرتطم رأسه بغطاء التابوت فيشج ، ويستنيث بملء فيه فلا تخرج الاستغاثة من حلقه إلا كنداء المبحوح لا يكاد يسمعه أدنى الناس إليه . وتمثلت له صورة المرحومة زوجة عمه ساعة احتضارها وصورة أخ له حميم علق على أعواد المشنقة وصورة فتاة كانت من أحب الفتيات إليه وآثرهن عنده ابتلعها التيار الجارف وطوتها الأوذاى الصاخبة فى مهاويها البعيدة الأغوار !

وحاول المسكين أن يدفع عنه أفكاره مرة أخرى ولكنها ما كانت لتزداد إلا قرباً منه فيهلع فؤاده الخوار

ولقد عاوده وهو تحت غطائه شيء من الثقة بالنفس وقليل من الجرأة التي كان يتبجح بها ، وأقر في نفسه أن هذا الذي يبدو منه خور لا يليق بمثله ، وضعف من العار أن يثبت عليه ، وعزم عزماً صادقاً على أن ينهض من فراشه دون ما خوف ولا وجل ليظهر أمام نفسه بمظهر الجسور وليريها أن الشجاعة لديه ليست ادعاء كاذباً ولكنها حقيقة لا يعوزها دليل ولا إثبات ، ولكن يأبى سوء الطالع على ما يظهر إلا أن يلازمه ، فما كاد يرفع رأسه حتى لامس جبهته جدجد كان قد دخل من النافذة طائراً ولجناحيه حفيف كحشخشة الأوراق المتناثرة عند ما تذروها الريح . فارتاع أيما ارتياع ، وعاد فكمن تحت الدثار في مثل ومض البرق الخاطف ولفؤاده وجيب يتجاوب في أذنيه صداه

ورن جرس الكنيسة القائمة حيال المقبرة في ضاحية القرية ، رنات بطيئة محزنة تملك المشاعر ، وصر الجدجد فوق السرير صريراً يكمد النفس ويشجي الفؤاد على حين كانت الساعة وراء الحائط تنشد أغنيتها الموزونة من غير ونى ولا إبطاء فتزيد المكان رهبة على رهبة

أحسّ فاكسين كأنما النمل يحبو على ظهره ، فعرت جسمه المجهود قشعريرة هزّته هزّاً ، وتراءت له صورة عمه كأنها قد تجسّدت وتملّصلت من إطارها وأكبت عليه تنفح رقبته أنفاسها الباردة فاستولى عليه ضيق شديد خيّل معه إليه أن يدي عمه الباردتين تضغطان على عنقه حتى اختنق أو كاد فخانته قواه ، ولم يبق في مقدوره أن يتجلد أكثر مما فعل ، فتعلقت أنامله المرتجفة بخيط الجرس تحت وسادته تعلق الغريق بآخر أمل له في الحياة ، وجذبه بعنف يستدعي خادمه ليستعين بمرآه على تنفيس كربه ، وما هي إلا دقيقة أو اثنتان حتى أقبلت قيّمة الدار صائحة من وراء الباب :

— « لقد أذن سيدي (لكلافديه) بزيارة أهله في المدينة وليس في المنزل أحد سواي ، فهل يريد سيدي أن أقوم له بخدمة ؟ »

وهبط هذا الصوت الأنثوي عليه هبوط الفرج على البائس الحريب ، ووجد فيه أنساً يبدّد مخاوفه بعد أن ناله منها ما ناله من عنت وضيق ، فأفرخ روعه واطمأن باله قليلاً ، وتجرّأ فرفع رأسه من تحت الدثار ، وقال وقد ضرّج الحياء خديه :

— آه ! أهذه أنت يا (روزاليا كارلوفنا) ؟ لقد جشمت نفسك مشقة المجيء إلى بعد أن كنت غافية ، تفضلي وادخلي

— ماذا يريد سيدي مني ؟

— إنك حقّاً ذات قلب رقيق وخلق كريم... كنت أود ... آه ... ولكن تفضلي ادخلي ياعزيزتي روزاليا ... ليس ثمة ماتخجلين منه ، فالقنديل مطفأ وأنا في السرير ، ادخلي

ودخلت قيّمة الدار وهي ألمانية ذات جسم بدين وعليها مسحة من الجمال الأنثوي المغري ، وخطت خطوتين اثنتين ثم وقفت تنتظر أمر سيدها الذي سرّى عنه لدى دخولها ، وتنفس الصعداء

كمن يلقي عن كاهله عبئاً بهظه ويفدح قواه ثم قال :

— أرجو أن تجلسى يا عزيزتى روزاليا ، أتعلمين ماذا أريد ؟ !

وتنحنح وهو ينظر بطرف عينه إلى صورة عمه ويفكر فيما ذا عساه أن يطلب منها فى مثل تلك الساعة المتأخرة فى الهزيع الثالث من الليل ، ثم رفع رأسه إليها وقال :

— آه ... ! كنت أود أن أكلف الخادم بشراء غليون غداً ، ولقد عزب عن بالى أنى أذنت له بزيارة أهله ... ولكن لا بأس ! فهل لك أن تبلغيه رغبتى لدى عودته ... ؟ ! ولكن اجلسى بربك !

— غليون ؟ ! هيه ! أقول للخادم أن يبتاع لك غداً غليوناً ؟ ! جميل حقًّا ما تطلب يا سيدى !

وهزت رأسها باستخفاف وهزء ثم استأنفت :

— وبعد فماذا تريد ؟

— أريد ... إيه يا روزاليا ... عليك بالله أن تستريحى على الأريكة ريثما أفكر في شيء آخر أكلفك بتبليغ (كلافديبه) شرائه

— هيه ! أخطأت يا سيدى كل الخطأ فيما ذهبت إليه ... ! لا لن أجلس ! وليس من اللياقة ولا الأدب أن تجلس فتاة شريفة في غرفة رجل بعد منتصف الليل !

قالت ذلك بلهجة جمعت بين الغضب واللين ، وهمّت بالانصراف ، فاستوقفها وطلب إليها مرة أخرى أن تنزل عند رغبته فتستريح على المتكأ ولو هنيهة واحدة ثم تذهب ، غير أنها أبت ، وفار دمها واحمرت وجنتاها وصاحت به :

أرى أنك رجل خليع متهتك ... أنا لم أسمع قبل الساعة أن خادماً يستدعيها سيدها من فراشها لأجل غليون ! أوَ تحسبنى جاهلة ؟ إنى أعلم حق العلم ما ترومه منى !

ودارت على عقبيها وعادت أدراجها إلى غرفتها بعد أن أغلقت وراءها باب سيدها حانقة غضبى . فلم يُبْد فاكسين ولم يُعِد . وحسبه أن حضورها إليه وحديثه معها قد أزالا عن صدره كابوساً من الهم كان يرهقه وإن يكن فى قرارة نفسه قد خجل من ضعفه ، وجذب الغطاء عليه وراح يتلمس النوم بعد ذلك الهدوء النفسانى ... ولكن دون جدوى فكأنما تعادى النوم وأجفانه فصد عنها وجفاها

ومضت عشر دقائق سرعان ما تصرمت ثوانيها ثم عاد الخوف إلى فؤاده ، فتمتم لاعناً تلك الساعة التى قادته فيها قدماه إلى منزل ذلك الصديق الذى حفلت الأمسية عنده بالأحاديث عن الأرواح والجن والموتى ، ومد يده إلى المنضدة قرب سريره ليتناول علبة الثقاب فلم تعثر أنامله المعيّشة عليها

وتراءى له أن شيخاً عملاقاً جاثماً في زاوية الغرفة يرمقه بالنظر الشزر ويتهدده بقبضة يده القوية وأن عينى عمّه تخزرانه [1] بنظراتهما ، فتضاءل واستخذى ، ثم استجمع إرادته الموزّعة وعزم على أن يستدعى الفتاة الألمانية من جديد لتؤنسه ، وسينتحل لنفسه عذراً مقبولاً كالمرض مثلاً ، ويطلب منها أن تأتيه بالدواء

ودقّ الجرس ، ولكن دون جواب ، فروزاليا كانت قد غفت وراحت تسبح فى نوم

(١) خزر فلاناً : نظره بلحظ عينه كبراً واستخفافاً

عميق . وكرر الدقّ ، ولكن دون جدى ، ولم تطرق مسمعيه حركة ولا نأمة اللهمّ إلاّ دقات جرس الكنيسة القائمة حيال المقبرة ، وكأنما تقرع رداً على قرع جرسه ؛ ثم ساد الصمت الرهيب ، وعراه ذعر شديد ، وأحس بأعضائه تتقرس ، فلم يجد وسيلة ينجو بها مما هو فيه إلاّ أن يقفز من سريره ويهرع إلى غرفة القيّمة يلوذ بحجرتها

ونهض من سريره فعلاً ويمم حجرتها حافى القدمين وليس عليه من الثياب إلاّ قميص نومه . وقرع بابها بيده فلم تجبه ، وناداها باسمها مراراً فما ردت عليه ، ولقد أدرك أن اللعينة تسمع نداءه وتتصامّ فقال لها بلهجة المتوسل الضارع :

— روزاليا ... أنا مريض ... أسعفينى بزجاجة الدواء ... أتفهمين ؟ ! أرجو منك أن تسعفيني حالاً فأنا العليل واقف ببابك ... إيه ... لا أفهم والله لهذا التعنت سبباً ... ولا أفقه معنى لهذه الحدة تبدر منك لى ... ولا سيما أنى محرور ، وبى صداع أليم لا طاقة لى على احتماله

— سأقص كل شيء على زوجتك يا سيدى ، وسأروى لها الخبر بحذافيره ؛ سأعلمها عن تصديعك خاطرى من أجل ... آه منك يا هذا ؛ سأنبئها عن هذا كله إن لم ترعو عن غيّك وتثوب إلى رشدك ؛ ألا تريد أن تدع فتاة شريفة مثلى ؟ ! عند ما كنت عند البارون « انزيج » أقبل إلىّ حضرته كما أقبلت إلىّ أنت الآن بحجة التفتيش عن علبة ثقاب ، ولكنى وأنا الذكية أدركت بداهة أية علبة ثقاب كان يبتغى فعنّفته وزجرته ، وهرعت إلى البارونة أطلعها على الأمر وقلت لها إنى شريفة طاهرة الذيل

— ليحمل الشيطان شرفك وطهرك ، فأية غُنْيَةٍ لى فيهما أيتها المعتوهة . إنى مدنف عليل يعوزه الدواء ... أتفهمين الآن ؟ !

— أنا أدرى منك بالدواء الذى تحتاجه ، إليك عن بابى يا سيدى ، فزوجتك شريفة وإن عليك أن تحبها هى وتخلص لها الحب ؛ إنها مثال الأمانة والوفاء والطهارة والورع وهى تستحق منك كل رعاية وتقدير وإنها بهما لجديرة . أنا لا أريد أن أكون عدوتها ، وليس لى أن أنافسها فى هواك

— إنك حمقاء ، أجل إنك حمقاء ؟ !

قال ذلك وهو ينزو غضباً ، ثم أسند ذراعه إلى الباب ، ورسم إشارة الصليب على صدره ليطرد بها الأشباح من مخيلته الواهمة المضطربة ، وطفق يحدق فى سكون ذلك الليل البهيم بنظر تائه وفكر شريد ؛ ويفكر بما تبقى له من عقل : أيعود إلى غرفته حيث تتراقص أضواء الشمعة الشاحبة ، وحيث يرى رسم عمه الذى يفزعه بنظراته الجامدة الحادة ، وتخيّلُ الأشباح المروعة ... و ... ؟ لا ولكن أيبقى حتى الفجر حافى القدمين واقفاً على باب القيّمة يجلبابه الرقيق ؟ إن هذا لا يليق بمثله ؛ ما العمل إذن ؟ .. إنه لا يدرى

ودقت الساعة الثالثة وهو لا يزال على وقفته تلك يفكر تحت ستار الدجى الحالك ، تساوره المخاوف وتحف به الرؤى . ولقد غدا من شدة هلعه يحسب أن للأثير عيوناً ترمقه ، وأن الأرض ملؤها الأشباح المنبثة فى كل مكان تسلب الناس راحتهم وتعكر على البشر صفوهم

وخيل إليه أن جنيّاً ماردا واقفاً وراءه يصغى

إلى همسات روحه ، ويحصى عليه أنفاسه الزواخر ، وأنه ممسك بذيل جلبابه يشده منه ، ثم أحس كأن يداً من جليد وضعت على كتفه ، فقفّ شعر رأسه من الرعب ودفع الباب بكلتا يديه وهو ينادى القيمة باسمها بصوت مأخوذ كصوت المبحوح ، مستطار اللب ، زائغ النظرات ؛ ودخل غرفتها وأغلق وراءه الباب

كانت الفتاة الشريفة قد استرسلت فى نومها الهادئ العميق على نور سراج يرسل أضواءه الصفراء على جسمها الهانئ المتنعم بلذة الرقاد

ووقف فاكسين برهة يستعيد فيها بعض قواه الحائرة ثم ارتمى على عيبة[1] قرب الباب تؤنسه أنفاس الفتاة النائمة ؛ وشعر بالطمأنينة تعود إليه رويداً رويداً

قال فاكسين فى سره : فلتنم هى ، وأما أنا فسأبقى حيالها حتى الصباح وأترك حجرتها قبل أن تستيقظ

واعتمد رأسه على راحته وطفق يفكر في هذا الذى انتابه ، ويعجب كيف تستحوذ عليه الأوهام ، وهو المهندس الأريب إلى هذا الحد القصى . وعزا ذلك كله إلى وهن أعصابه الهائجة وخور نفسه ولم يلبث أن استولى عليه النعاس فأغفى

* * *

وعادت مدام فاكسين من (ترويستا) فى الصباح الباكر ولما لم تجد زوجها في غرفة نومه دخلت غرفة الألمانية لتطلب منها شيئاً من النقود كى تدفع الحوذى الذى أقلها أجرته ، فوقع نظرها على روزاليا متمددة فى سريرها وقد سقط عنها دثارها فظهر فخذاها العاريتان البضتان وبانت تكاوين جسدها العابل فاتنة مغرية ؛ ورأت على قيد ذراعين منها زوجها فاكسين مستلقياً من غير غطاء ولا دثار على الميبة الكبيرة بجلبابه الفضفاض يغط فى نومه غطيط البكر !

أما كيف أيقظته زوجته من رقاده وماذا حدث بينهما بعد أن شاهدته فى ذلك الوضع الزرى الشائن فما أدع وصفه لسواى يعبر عنه بالمنطق الذى يروقه والبيان الذى يشوقه ، فأنا وقد كلّ ساعداى ووهنت قواى أرفع يدى مستسلماً وألقى سلاحى

جورج سلستى

(١) زنبيل من أدم تحفظ فيه الثياب

ادرس فى منزلك

مدارس المراسلات المصرية تساعدك بمجهود بضع ساعات من وقت فراغك فى كل أسبوع على الحصول على الدبلوم الذى ينقصك للحصول على الثروة والشهرة والرقى

نحن نعد لدرجات جامعة لندن فى الآداب والعلوم والهندسة والقانون والتجارة الخ ... وللابتدائية وللبكالوريا وللغات والصحافة والرسم والتصوير . تأليف الروايات . تربية الدواجن . صناعة الألبان ومنتجاتها . تفصيل الملابس . الراديو . التنويم المغناطيسى ، وجميع أنواع المهن والصناعات

كتاب طريق النجاح فى ١٠٠ صفحة يرسل مجاناً لكل من يطلبه من الادارة نمرة ١٠ شارع قنطرة غمرة بمصر تليفون رقم ٥٠٣٥٩

أول إبريل

للأديب نجيب محفوظ

في منتصف الساعة السابعة صباحاً وصل على أفندى خليفة إلى المدرسة التى هو سكرتيرها ، كعادته منذ خمسة عشر عاماً ، وباشر أعماله بالأسلوب الذى تعوده وألفه فصار قطعة من صميم حياته ، إذ أن كل ساعة من حياته الحكومية كانت تسير على وتيرة واحدة لا تتبدل ولا تتغير : يدخل إلى « حجرة السكرتارية » فيحيي زملاءه ـ الكاتب والضابطين ـ تحية الصباح ، ويجلس إلى مكتبه ثم يحضر عم خليل بالقهوة والماء المثلج ، فيمضى فى احتسائها وهو يتحدث إلى القاعدين أو يستمع إليهم ، ثم يأخذ فى فتح الدفاتر ويراجع ويكتب . ثم تخلو الحجرة حين يذهب الآخرون إلى فناء المدرسة لمراقبة التلاميذ وتنظيم صفوفهم ؛ ثم يخف بعد ساعة من الزمن إلى لقاء الناظر لعرض الأوراق واستشارته فى بعض الأمور وتلقى الأوامر والارشادات . وإذا جاء اليوم الأول من الشهر ازدحمت حجرته بالمدرسين والموظفين وامتلأت يده بالأوراق المالية ، فلا يزال يوزعها حتى لا يبقى إلا وريقات معدودات يودعها جيبه ساعة ريثما يوزعها بدوره أشتاتاً على صاحب البيت والقصاب والبدال

هكذا تدور عجلة حياته فتبدأ من نقطة وتعود إليها ، ثم تبدأ وتعود بحيث لو شذت عن الخط المرسوم مقدار ذرة — كأن يتأخر عم خليل بالقهوة دقيقة أو يدق الجرس فيبطئ الضابط لحظة فى مغادرة الحجرة — قلق واضطرب واهتز رأسه يمنة ويسرة مثله مثل النائم فى ظل ساقية دائرة إذا وقف الثور لعلة انتفض مستيقظاً منزعجاً ! إلا أن طارئاً من الحدثان نزل بساحته أخيراً فبدل طمأنينته رعباً وسكينته قلقاً وتفاؤله تشاؤما ، وكان الكاتب يعلم بخبيئته من دون الآخرين لأنه كان أحب الناس إليه وأقربهم مودة إلى قلبه ، فلما رآه فى هذا الصباح دنا منه وفنجان قهوته فى يده وسأله همسا :

— كيف حالك ... ؟ فأجابه بصوت ضعيف تمزقه نبرات اليأس :

— يسير من سيئ إلى أسوأ

— ألا يوجد بصيص أمل ... ؟

— أبداً ... أبداً ... لا بيع ولا شراء ... الحركة راكدة ... والديون متراكمة ... والتجار يطالبون ويلحون ولا يعذرون ، وبات شبح الإفلاس منى قاب قوسين أو أدنى ... فإذا وقع ـ ولا مرد له ـ خربت خراباً تاماً ودمرت حياتي وحياة أولادى تدميراً وهويت إلى أعماق السجون

فتنهد على أفندى من قلب مكلوم وقال بصوت خافت :

— لا أمل فى النجاة

فسكت الرجل محزوناً ثم ذكر أمراً فسأله :

— وعمتك ... ؟

— أف ... أف ... لا رحمها الله فى دنيا ولا آخرة ... إنها تود لو تفقد ذاكرتها كيلا أخطر لها على بال ... ولقد انقطعت عن زيارتها مضطراً منذ حين لأنها لا ترانى حتى تصيح فى وجهى : «ماذا جئت تصنع ؟ : أنا لم أمت بعد ! » والمرأة تتبرع كل يوم بمئات الجنيهات للجمعيات الخيرية لا حباً فى الخير ولكن كيلا تخلف لى مالاً بعد موتها المتوقع يوما بعد يوم

فهز الرجل رأسه آسفاً وقال :

— ليتك يا على لم ترم بنفسك فى ميدان التجارة غير المأمون ...

— هذا هو الكلام الذى لا جدوى منه ... ومع هذا هل تنكر أن هذه التجارة هى التى يسرت على أمرى ، وجعلت عيشى رغداً ... وأعانتنى على تربية ستة من الأبناء ؟

* * *

قبل ثلاثين عاماً كان على افندى تلميذاً بالمدرسة الابتدائية يجتهد أن يفوز بشهادتها ، وقد جرّب حظه مرّات فى سنين متتابعة ، فخاب مسعاه فيها جميعاً ، حتى نفد صبره وذوى أمله . ورأى أبوه أن يفتح له حانوت عطارة فى الغورية ، ليبث فيه عامين يناضل في معترك الحياة ، ولكن لم يكن حظه فى حانوته بأسعد منه فى مدرسته ، فاضطر إلى إغلاق الدكان ورجع خائباً إلى بيت أبيه . وهناك فكر فى أمر مستقبله طويلاً فوجد أن خير طريقة ، أو أن الطريقة الوحيدة الباقية لديه هى أن يعود إلى نبش كتبه التى نسج عليها العنكبوت ، وأن يجرب حظه مرة أخرى كتلميذ مجتهد وإن تقدّم به العمر ؛ وفعل ونجح ، ووظّف كاتباً فى وزارة المعارف . واطمأن إلى الحياة بعد أن أشرف على اليأس والقنوط ، وغبط نفسه على عمله المضمون الرزق ، وأحس فى أعماق نفسه بفخار الرجولة ونشوة الاستقلال . ولما كان عرضة للتنقل إلى أقاصى الوطن آثر — عن حكمة — أن يتزوج . وقد جاب مختلف البلدان فى مصر العليا والسفلى إلى أن انتهى به المطاف رجلاً فى ذروة الرجولة إلى مدرسته الحالية فتقلب فى وظائفها جميعاً حتى رقى إلى وظيفة السكرتير

وكان على خليفة مثالاً للرجل العادى الذى لا يخرج عن المألوف ، وأنموذجاً صادقاً للأخلاق المصطلح عليها والعادات والتقاليد التى يجري بها العرف ، لا يشذ إلى اليسار ولا يجنح إلى اليمين . وجد كل شىء جاهزاً فهش له وآمن به واتبعه ، معتقداً مع المعتقدين ، مستحسناً مع المستحسنين ، ساخطاً مع الساخطين ؛ فإن عرفت جيله فقد عرفته بغير مخالطة ، وإن خبرته فقد خبرت جيلاً أو — وهو الأقرب إلى الحقيقة — خبرت الشطر الجامد من الجيل الذى يفتحه التاريخ إلى ما وراءه من الأحداث التى تخلق التاريخ . ولما تزوج استولت عليه الحياة الجديدة ، واستبدت به ، وتكشفت له حقيقته ، فإذا به « رجل بيت » بكل معانى الكلمة ، فالبيت مأواه ولذته ، لا مقهى ولا ملهى ولا سينما ولا حانة ولا أصدقاء ولا هواية ولا أى شىء فى الوجود بقادر على أن ينتزعه من أحضان بيته . وحين كان يعيش منفرداً مع زوجه كانت حبيبه وأنيسه وجليسه ، فلما أن انبثت ذريته — بنين وبنات — حاشية ساعية لاعبة مشرقة

على أنحاء البيت ، كان له منها الحبيب والهوية والمأوى يسكن إليه

وكانت الحياة تسير فى بادئ الأمر هنيئة جميلة ممتعة ، لا يكدر صفوها مكدر ، ولا يظلل صفحتها البيضاء ظل من الحزن أو الفكر ، ولكنها لم تلبث أن فرضت عليه ضريبتها التى لا تعفى منها أحداً من بنى الإنسان ، حتى صارت عنواناً عليها ورمزاً لها ، وباتت الشكوى منها إنكاراً للحياة نفسها وجهلاً فاضحاً بأمرها ، فمات أبوه ونما أطفاله صبياناً وغلماناً وهجروا عشهم سعياً إلى المدارس الأولية فالابتدائية ثم الثانوية ، وتعددت حوائجهم ، وتشعبت مطالبهم وتضاعفت نفقاتهم يوماً بعد يوم ؛ فانقلب يسر الحياة عسراً ، وراحتها تعباً ، وابتسامتها تجهماً ؛ وانسابت الهموم إلى كل جانب من قلبه ، وطفق يردد لنفسه أن كل شىء يهون إلا أن يشقى أو يشكو هؤلاء الأبناء الأعزة

وتذكر أن له عمّة أرملة غنية تعيش بمفردها فى بيت كبير تحت رعاية ممرضة ، وكان يتجافاها وينفر منها من طول ما بثّ أبوه فى نفسه ، ففكر فى أن يقصد إليها مضطراً

وكانت عمته امرأة فى السبعين ، مات عنها زوجها — قبل اربعين عاماً — وهما فى زهرة العمر وميعة الشباب ، وخلف لها ثروة طائلة وطفلاً وحيداً ، وقد ترك موت الزوج فى نفس المرأة آثاراً عميقة مروعة تغلغلت فى صميم حياتها ، ولم تعف مع كر الأعوام ودوران السنين . وأقبلت على العزاء الوحيد الذى بقى لها فى دنياها تمنحه كل ما فى قلبها الحنون من عطف وحدب وتفان وتضحية ، حتى شب طفلاً جميلاً ، ونما شاباً رقيقاً نحيلاً ؛ وبدأت تفكر فى أمر زواجه ، كى تراه رب أسرة وتسعد بمشاهدة ذريته ، إلا أن الأقدار فاجأتها بما لم يقع لها فى حسبان ، فتردي الابن كما تردى أبوه العزيز من قبل مصدوراً ميؤوساً منه ، وقضى بين السعال من جانبه والتنهد والبكاء من جانبها

انتهى كل شىء وأقفرت الدنيا من الأمل والعزاء ، وماتت حيّة ودُفنت مع ولدها الحبيب كل ما ميزها الله به عن الأحجار الجامدة ، وصدق عليها كل ما وصفها به أخوها من قبل وما يصفها به ابنه الآن ، فهى المرأة العجوز القاسية المجنونة التى تكره الخلق وعلى رأسهم أقاربها ، وتسيء الظن بكل من يتقرب اليها ، وتخال أى زائر طامعاً فى أموالها ، وتقضى حياة الكبر طريحة الفراش مريضة القلب تسهر عليها ممرضة فى بيتها المهجور كأنها مومياء فى أحد معابد الكرنك الحزينة

هذه هى عمته التى قصد إليها بعد أن اشتدت وطأة الحاجة عليه ، وقد استقبلته استقبالاً بارداً جافاً فلم يأنس فى نفسه الشجاعة أن يفاتحها فيما جاء من أجله ، وبرح بيتها أشد يأساً مما طرقه

وقلّب مسألته على جميع الوجوه فلاح له أن يشتغل بالتجارة وهو حل لا بأس به ولكنه شديد الخطورة بالنسبة لموظف حكومى . ولكنه لم ييأس واستعان بالكتمان والخفاء وبخبرته التجارية التى اكتسبها فى أول عهده بالحياة العملية . فاتجر فى العطارة ونجحت تجارته ، وأقبلت عليه الحياة رغدة ، ولكن حال النجاح لم تدم ، فساءت الأمور ، وركدت السوق النافقة ، فجزع واشتد جزعه ، ولعبت يداه فى الدفاتر بغير الحق ، ولم ينفعه تلاعبه شيئاً ، وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، واضطر

— تحت تأثير الخسران — إلى زيارة عمته مرّات وفاتحها — على رغم تردّده — فى طلب المعونة ولكنها كانت أشدّ عليه من حظه ومن الأقدار جميعاً، فرفضت أن تمد له يداً أو أن تعيره أذناً صاغية. وفى ذلك الوقت بلغت الأمور شدة الفيضان الذى لا يكون وراءه إلا الانفجار والهلاك، فالعمة فى أشد حالات الشذوذ وسوء الطبع والمرض، وعلى أفندى على شفا جرف هار من الخراب والدمار، والتجار متذمرون جزعون، يطالبون ويلحفون ويطبعون على آذانهم فلا يسمعون، وقد عينوا له أول أبريل كآخر منزع فى قوس صبرهم، فان لم يسدّد دينه ويسو حالته أشهر إفلاسه، وليكن مايكون بعد ذلك من رفضه من وظيفته أو إيداعه السجن . . . كل هذا ينتظره فى أول أبريل . . ! وما بينه وبين أول أبريل إلا أيام معدودات ! . . وقد نفدت حيلته وسدت فى وجهه المنافذ ! . . ثم ماذا يكون من أمر هذه الأسرة التى هي ثمرة حياته ومحيا آماله ؟ ! . هذه الأسرة التى تعيش سعيدة مطمئنة غافلة عما يهددها من الشقاء والبأساء، اللهم إلا ريثما الصابرة القانتة التى تشارك الزوج أحزانه وتبادله همومه وتكتم فى قلبها الكبير ما لو أطلقته لأحرق الدنيا بأسرها من شدة ما به من هول، ولأحرق أول مايحرق هؤلاء الأبناء السعداء الذين يمرحون سادرين كالأفراخ اللاعبة الغافلة عن القط الرابض لها من قريب . . . وذكر فى شدة حزنه أبناءه فهرعوا إلى مخيلته فى صورة تفيض حياة وجمالا . وكان حسين ومحمد فى المدرسة الثانوية فتيين ناميين يحملان طلعة والدهما ورقة أمهما، وهمام وحافظ ويسن فى المدرسة الابتدائية وهم حياة البيت يحيا ويمتلئ هرجاً ومرجاً ما داموا فيه، ويسكن سكون المقابر إذا غابوا عنه، وزينب أو زوزو فى المدرسة الأولية هوية الأسرة ولعبتها، صبوحة الوجه، سوداء العينين، مرسلة الشعر، كانت بنتاً بين ستة ذكور كالياسمينة وسط باقة من الورد الندىّ، حبيبة إلى كل قلب، عزيزة على كل نفس، حتى لكأن هذه الأسرة لم يتزاوج فيها الوالدان ويولد الأبناء إلا ليهيئوا المقام لزوزو حيث كانت حسن الختام ونقطة الانسجام

فماذا يكون من أمر هذه الأسرة من بعده . . ؟ بعد أن يرفض من وظيفته ويزج به فى السجن . . ؟ أواه ! دون ذلك ويمكن المستحيل وتقع المعجزات والخوارق . ! !

ولم يجد مناصاً من أن يذهب مرة أخرى إلى عمته علّها تلين بعد طول التصلب والصلف والقسوة، فسار فى طريقه إليها — وكانت تقيم على مدى منه قريب فى شارع محمد على — مهموماً متضايقاً يعمل ألف حساب لتلك الزيارة الاضطرارية الثقيلة . يا لله من هذه المرأة . . ! مالها لا تموت . . ؟ إن حياتها فرض ثقيل عليها وعليه، وإنها كالبنيان المتهدم ينعق فيه ناعق الخراب والمرض . ورغم هذا فذيول الحياة ما تزال متشبثة بها . إن سعادة نفوس عزيزة رهن بموتها فلم يبق الله عليها ؟ والمضحك المؤلم أنها قد تموت فجأة بداء قلبها بعد اليوم الأول من ابريل بساعات معدودات أو بعد القضاء عليه وعلى أسرته القضاء المبرم . وقد ينفذ هذا القضاء العجيب كما ينفذ أمثاله كل يوم وكل حين مما تحتار فى تعليله العقول، وقديماً وقف موسى الكليم حياله جزعاً لا يستطيع معه صبراً ! وطرق الباب ودخل حيث قابلته الممرضة بابتسامة صفراء ذات معنى، فسألها :

— كيف حالها ؟

فأجابته ببرود : بخير

ووصل إلى مسمعه صوت رفيع مبحوح دلت بشاعته على أنه يخرج من فم خرب يسأل :

— من الذى تكلمين يا عائشة ؟

فارتجف جسمه وسرت فيه قشعريرة مثل مس الكهرباء ، وتردد ، وجمد ، ثم كز على أسنانه ودخل إلى الحجرة وهو يقول :

— أنا على ... كيف حالك يا عمتى ؟

فدمدمت وقالت بتأفف وتبرم : على !

فأحنى رأسه ووقف صامتاً وعادت هى إلى سؤاله قائلة :

— هل جئت حقاً لتطمئن على صحتى ؟

— نعم

— وهل يهمك أمر صحتي ؟

— طبعاً

— إذا لم تخلط السؤال عنها بسؤال شيء آخر ؟

فضرب كفاً بكف وقال بصوت حزين :

— لا تظنى بى الظنون ... فقد عشت دهراً لا أسألك شيئاً ثم ...

— ولم تكن تربى وجهك بتاتاً ... ولم تكن صحتى أمراً يهمك السؤال عنه ...

— بالله أعيرينى أذناً صاغية ... لقد شرحت لك أحوالى ... أنا مهدد بالخراب بين لحظة وأخرى . اصرفينى عن ذهنك واذكرى أبنائى البؤساء وما ينتظرهم من شقاء ...

— لم أر أبناءك طول حياتى ...

فآلمته لهجتها التهكمية وحمى رأسه بنار الغضب ولكنه لم يكن في حال يأذن له باعلان مايبطن ، فنظر إليها نظرة النمر الواقع فى الشرك وقال وهو يجهد أن يجعل صوته هادئاً :

— إذا منعت عنى يدك دمرت لا محالة ...

وهنا هبّت قاعدة فى فراشها وصاحت في وجهه

— فى داهية !

— عمتى ...

— لست عمة لأحد

— لا تكونى هكذا

— هكذا أنا ... أعزب عنى ولا ترنى وجهك مرة أخرى

وحاول أن يقول شيئاً ولكن لم يسعه الكلام ، فجمد لحظة حيث هو ملتهب العينين ، محمى الرأس ، مرتعش الأطراف ، ثم غاب عن ناظريها . ولقى فى الخارج الممرضة واقفة تنصت ، فقابلته بنفس الابتسامة وقالت :

— ككل مرة ! ؟

فهز رأسه غاضباً وقال :

— إنها شر ما فى الوجود ... إننى أعجب كيف يؤاتيك الصبر على معاشرتها ؟

— إنى أقوم بواجبي ... وهى على كل حال لا تعاملنى نفس المعاملة ...

وتوقف لحظة لايدرى ماينبغى أن يفعل ، فلاحت منه التفاتة إلى مائدة صغيرة رصّت عليها زجاجات الدواء فتنهد وقال بغير وعى :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة !

ولم تكن المرة الأولى التى تسمعه فيها الممرضة يقول هـذا القول فارتاعت لتكراره وردّدت قوله مرتعبة :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة ! !

فنظر إليها بسرعة مرتجفاً والتقت عيناها لحظة فلمع بينهما ما يشبه البرق ، ثم خرج مهرولاً وهو ينتفض من هول ما خطر على باله ، وهبط السلم مسرعاً كأنما يفر فراراً ...

* * *

وجاء اليوم الأول من ابريل ، والأيام تسير فى دائرتها المفرغة غير عابئة بما تحمل للناس من مسرات وأهوال لا اختلاف فى هـذا بين يوم التطير أو يوم التفاؤل ، ولم يكن هـذا اليوم جديداً فى العام ولا جديداً فى حياة على افندى ، ولـكن خيّل إليه هذا الصباح أنه يستقبله لأول مرة في حياته بل عجب كيف أمكن أن يوجد كبقية الأيام وكيف أمكن أن يأخذ مكانه الطبيعى بين أيام السنة وهو يحمل له نذير الخراب ولأسرته الشقاء والفناء ! ...

أواه ! إن موعده مع التجار أصيل هذا اليوم ، ولدى هذا الأصيل يتقرر مصيره . وانه ليعلم علم اليقين أى طريق هو موليها بعد حين قليل ... بعد ساعات سريعة الجريان ...

ومع هذا فها هو ذا يجلس إلى مكتبه يرتشف القهوة ويقلب الأوراق ويشترك فى الحديث مع هذا وذاك ، وكل من حوله منصرف إلى عمله ، والتلاميذ فى الفناء يضجون ويلعبون ، والحجرة هى هى ، والمدرسة هى هى ، والدنيا كلها هى هى ، كأن شيئاً لن يحدث ، وكأن دماراً مروعاً لا يوشك أن ينزل بحياة أسرة كبيرة فيذروها ذر الرياح ! !

والمضحك بعد هـذا أن يقال إن الإنسان حيوان عاقل ، وهل يستطيع إنسان أن يرد بنور عقله قضاء يعجز الحيوان عن رده لانعدام عقله ؟ ها هو ذا لا يستطيع أن يصرف عن نفسه دماراً يعلم به قبل وقوعه ، وكم غير هذا الدمار — مما يجهل — قريب لا يستطيع حياله تصريفاً . حقاً إن الحياة مأساة مؤلمة مضحكة ، ما الذى ينبغى أن يفعل ؟ ... إنه يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة المائة والألف ولا يملك إلا تكراره وترديده كالمخبول ... وقد سمع فجأة صوتاً يقول :

حان الميعاد ...

فارتجف جسمه وانخلع قلبـه فى صدره ... الميعاد ... إنه لا يفكر إلا فى ميعاد واحد ولـكن الصوت استطرد مرة أخرى ضاحكا :

الساعة تدور فى الحادية عشرة فهيا إلى الوزارة لاحضار المرتبات ...

حقاً إن اليوم يوم المرتبات ، ينتظره آلاف غيره بفارغ الصبر فـكيف نسى هـذا ؟ وخرج متثاقلا مهموماً يولى وجهه شطر الوزارة ؛ وعلى حين فجأة وبغير تمهيد واع اصطدم فـكره الشارد المتوزع فى محيط الشقاء بفكرة وامضة ، فتنبهت حواسه ، وشع من عينيه بريق خاطف ، وأحاط به الرعب الذى مسه حين التقت عيناه بعينى المعرضة فى بيت عمته بالأمس القريب . لاحت له هذه الفـكرة فى لحظة سريعة جنونية ، رآها كمن يفتح عينين ناعستين فى الظلام فتلمحان على غير توقع شبح شيطان نارى ، يهدد ثانية ثم يختفى تاركا خلفه الصرع والجنون . وقد جن بغير شك ، واستولت عليه الفكرة بقوة مارد مستبد . أى رعب ، أى شر ، أى مصيبة ، أى نجاة ، أى فـكرة نيرة ، أى خلاص ، أى دمار ، أى هول ، انهـا تحمل جميع هذه المتناقضات إلى نفسه المضطربة المريضة ، وإن من اليأس ما يعجز عن قلقلة ذرة من الرمال ومنه ما يزحزح الجبال ،

وقد جرى منطقه المحموم فى طريق ذى عوج : إذا سرق كان جزاؤه المحتوم الرفض والسجن ، ولكن إذا لم يسرق لم ينج لا من الرفض ولا من السجن ... إلا أن النتيجة مع السرقة تختلف ، فهو بها يستطيع أن يكسب التجار وينقذ تجارته فيضمن لأسرته — وأسرته هى قطب تفكيره — حياة رغدة سعيدة ، بل إنه ينوى ما هو شر من هذا وأعظم رعباً ، إنه ينوى أن يراود المرضة — بسلطان المال — على ... ! ! حقاً إن هذا فظيع مخيف ... ولكن تأخير الدواء لحظة كفيل بالقضاء على تلك المرأة الشريرة ، التى تقع من حياته موقع الزائدة الدودية الملتهبة ... حقاً إنها جريمة نكراء ولكنها مضمونة العاقبة وعادلة من الوجهة الانسانية ... ونفاذها يضمن لأسرته أرغد العيش وأطيبه . وهب أن المرضة أبت عليه تحقيق غرضه فلن يضيره إباؤها شيئاً ، وتبقى بعد هذا تجارته ، وهذا شىء مؤكد . نعم إن السجن لا مفر منه ولكنها سنوات قلائل يقضيها — مع الاطمئنان على أسرته — صابراً ويخرج بعدها كي يتمتع بعيشة هانئة ثرية فى مكان سحيق ... كل هذا واضح بيّن ولا بد من تنفيذه بدقائقه ، وليكن بعده ما يكون ...

واستلم المال واستقل « تاكسى » وقال للسائق بصوت حاول ما استطاع أن يجعله هادئاً : إلى شارع محمد على . نعم إلى البيت لا إلى المدرسة حيث يجد متسعاً للتفكير والتدبير ، كم هو مرتعب خائف ، إن أسنانه تصطك ، وأطرافه تنتفض ، وأجفان عينيه تتصلب ، وريقه يجف ، وأنفاسه تبطىء وتثقل كأن يداً جبارة تخنقه

ووصلت السيارة إلى شارع محمد على ، ودلو لم تصل إليه أبداً . وكان قد دبر الأمر كله فى عقله ولكنه شعر فى تلك اللحظة بأنه فى حاجة إلى معاودة التفكير مرة أخرى من مبدئه كأنه لم يطرقه بعد . وهنا اعترضت الطريق عربة كبيرة عرقلت حركة المرور فاضطر السائق إلى إيقاف السيارة ، فنظر إلى الأمام ليستطلع ما هنالك فرأى العربة وإلى جانبها شرطى يهدد سائقها ، رباه ! لقد أرعبه مشهد الشرطى وأثلج دمه فى عروقه ، وهم أن يأمر السائق بالرجوع ... وعلى حين فجأة سمع صوتاً يناديه قائلاً :

— بابا ...

فالتفت مذعوراً فرأى زوزو واقفة على سلم السيارة ، ووجهها الجميل قريب منه ، وكانت تمسك بحقيبتها فى يد وتعالج بالأخرى الباب لتدخل إلى أبيها . فلما كان لها ما أرادت جرت إليه فرحة مسرورة ، فمنعها بيده وسألها بسرعة ولهجة جافة :

— لم أنت هنا ؟

— أنا آتية من البيت حيث كنت أتناول غدائى وذاهبة إلى المدرسة

— حسن ... حسن ... هيا إلى المدرسة بسرعة لئلا تتأخرى

— انتظر ، عندي لك خبر سار ... هل تشتري لى شيكولاته نسله إذا قلته لك ؟

— ليس الآن ... هيا ... هيا ...

— عمتى ...

— فجمد لسانه فى فمه ونظر إليها نظرة غريبة ففرحت البنت لأنها لفتت انتباهه إليها وقالت :

— ماتت

— ماتت عمتك ! !

فرت هذه العبارة من فمه فى صراخ مدوٍ ...

فازداد فرح الفتاة وقالت :

نعم ... هذا ماقالته لى حميدة « الخادمة » لما سألتها عن تغيب ماما على غير عادتها

وصرف زوزو بعد أن وعدها خيراً وأمر السائق وهو يلهث بالذهاب إلى المدرسة ، نعم إلى المدرسة ليسلم بدوره الأمانة إلى مستحقيها . لقد أتاه الفرج دفعة واحدة . لقد أنقذ بعد أن تدلى جسمه فى الهاوية ، أنقذ من الافلاس والخراب والسرقة والجريمة والسجن . رباه ! انه لم يقدر هذا ولم يحلم به أبداً وما كان فى مكنة مخلوق مهما رسخ إيمانه أن يقدّر هذه النهاية أو يحلم بها ... فالحمد لله ... الحمد لله ...

وانصرف من المدرسة سريعاً قاصداً بيت «المرحومة» ووجده كما تعود أن يراه هادئاً ساكناً لاصوت ولا نحيب . فطرق الباب ثم دخل ، وقابلته المرضة وكانت محافظة — برغم كل شىء — على هدوئها ، وقد سألته منكرة :

— أجئت مرة أخرى ؟

فنظر إليها دهشاً وقال :

— ما أغرب سؤالك ... ألست على كل حال ابن أخيها !

واجتاز بها مسرعاً إلى حجرة المتوفاة ... فرآها مستلقية على ظهرها ورأسها مائل نحوه ، مفتحة العينين ، بل رآها — وهو الأدهى — تنتصب قاعدة وتشير إليه بيدها الضعيفة مهددة وتصيح فى وجهه :

— كيف تجرؤ ؟ كيف تتجاسر ؟ ألم أطردك طردا ؟ أخرج ... أغرب عن وجهى ...

والظاهر أن المرأة تأثرت من الغضب الذى تملكها فجأة فسقطت على المخدة من الإعياء والجهد وصدرها يرتفع وينخفض . ووقف أمامها مبهوتاً جامداً كالتمثال ، ذاهلاً لا يستطيع كلاماً ولا حركة كأنه ينظر إلى شبح مرعب لا إلى امرأة عجوز منهوكة القوى . وما أحس إلا يد المرضة تسحبه إلى الخارج ، فاستسلم لها طائعاً وغادر البيت دون أن ينبس ببنت شفة

وقطع الطريق إلى بيته والذهول مسدول عليه ، وكان البيت يخيم عليه السكون — كعادته — إذ الأولاد فى المدرسة ، فظنت زوجه لأول وهلة أنه آيب من مكان عمله كعادته اليومية ، ولكنها مالبثت أن طالعت ما يكسو وجهه من آيات التجهم والذهول فتملكها الروع والذعر وظنت أن ما تشفق من حدوثه وترجو الله أناء الليل وأطراف النهار دفعه قد وقع ؛ وفزعت إلى سؤاله وهى أكره ما تكون للسؤال :

— ما بالك ؟

فسألها بدوره بامتعاض :

— أين زوزو ؟

— لعلها فى الطريق إلى البيت ...

فصاح بغضب :

— هذه الطفلة الشريرة !

— زوزو شريرة ؟

— قابلتنى فى الطريق منذ ساعتين وكذبت علىّ الشيطانة قائلة إن عمتى ماتت

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بدهشة :

— كيف تجرؤ ؟ من أين لها هذا الكذب ؟ هذا أمر عجيب .. بل إنه أعجب شىء أسمعه فى حياتى ..

لعل البنت وهى تسمعنا دائماً نتمنى على الله موت عمتك — أرادت ... »

ولم تتم حديثها إذ دق الباب ودخلت زوزو . وما إن رأت والدها حتى رمت حقيبتها وجرت نحوه ضاحكة وقفزت إلى حجره وأحاطت بيدها عنقه ثم قالت وهى لا تسكت عن الضحك :

— هل اشتريت لى الشيكولاته كما وعدت ؟

فنزع يدها الصغيرة عن رقبته بشىء من العنف ، وحدجها بنظرة قاسية ثم سألها بخشونة وهو يدفعها عن حجره :

— كيف تكذبين علىّ ؟

فقالت وهي لا تكف عن الضحك وإن بدأت تدرك صعوبة الاستيلاء على الشيكولاته :

— فى أى يوم نحن ؟

— إنى أسألك كيف تكذبين علىّ ؟

— اليوم أول أبريل . . . وقد علمت أنه يجب على الناس أن يكذبوا فيه .. وهكذا قالت لي بثينة ، وقد سألت (أبله) فأمنت على ماقالت بثينة ، ولكنها نبهت علىّ أن أختار كذبة سارة كى لا أوذى أحداً ... وقد اخترت لك أحسن كذبة ! »

فقطب وجهه وقال لها بشدة :

— لعنة الله عليك وعلى أول أبريل ... هل يصدق الناس طول العام كى يلهوا بالكذب فى أول أبريل ! ... »

وهنا فقط أدركت زوزو أنها أخطأت وأن والدها غاضب عليها حقاً ، وأنها فقدت كل الأمل فى الشيكولاته ، فكفت عن الضحك وعلا محياها الارتباك ، واحمرت وجنتاها من الخجل ، ونظرت إلى أمها تستغيث بها . أما أبوها فقد قام متثاقلاً ودلف إلى حجرته حزيناً كئيباً ينوء بالهم والفكر ، ولحقت به زوجه وانتبذت ركناً من الحجرة فى صمت ووجوم ووقفت ترمقه بعينين كئيبتين وقلبها يحدثها بدنو شر مستطير ، ولكنها لم تجرؤ على تمزيق هذا الصمت الغليظ . انتهى الأمر وخابت المحاولة الأخيرة وآذن الخراب بالوقوع

هل ينتحر ويضع حداً لهذه الحياة القلقة المنغصة ؟ لقد اضطرب عقله بهذه الفكرة الهائلة لحظة ، ولكنه تغلب عليها وفندها قائلاً لنفسه : « إذا انتحرت فمن للأولاد ؟ ... » ولم يجد أمامه سوى الاستسلام والنزول عند حكم القادر

وظل الصمت مخيماً يزهق النفوس ، والمرأة واقفة حيث هى ، وهو قاعد على الكنبة مسنداً رأسه إلى كفيه ، وقد ظهر رأس زوزو من الباب لحظة ولاحت عيناها تدوران بين والديها ، ثم ارتدت مسرعة ، فارة مضطربة

ولبثا على حالهما لا يشعران بفوات الوقت حتى تيقظا فجأة على طرق الباب ووصلت إلى مسمعيهما أصوات الأولاد ، وهم يدخلون واحداً واحدا يتقدمهم ضجيجهم وجلبتهم ، وقد دبت الحياة فى البيت وتحول فى ثانية إلى سوق ، وعلا صياح من هنا وصراخ من هناك ، وسمعت أصوات تنادى ، وأخرى تسب وتلعن ، وثالثة تنشد بعض الأناشيد المدرسية ، ورابعة تسأل عن ماما وبابا . ثم طرق الباب مرة أخرى بعنف ، ودخل شخص ما ، وساد صمت عجيب . ترى من القادم ؟ لقد دق قلب الرجل بعنف واعتدل فى جلسته ، وعيناه تتساءلان ، ونظر إلى الباب كأنه يتوقع سقوط صاعقة ... ورأى حسيناً يدخل مسرعاً وسمعه يقول باضطراب :

بابا ... يقولون إن عمتي توفيت ...

فقام الرجل كالمجنون وحدج ابنه بنظرة هائلة فقال الابن :

حضرت الممرضة الآن حاملة هـذا الخبر ... وها هى ذي واقفة تسأل عنك ... تفضلى إلى هنا ياسيدتى ...

***

فى ساعة متأخرة من ليل ذاك اليوم — يوم أول أبريل — جلس على افندى إلى جانب زوجه وكانت ما تزال فى ثوب الحداد وقد أوى الأبناء إلى الفراش وخيم السكون على البيت . كانت المرأة صامتة ولـكن كان وجهها راضياً مطمئناً وبالها مستريحاً وقد ولي عنها الدهر الذى لازمها أياماً خالتها دهراً طويلا

وكان على افندى يشعر شعور إنسان خطا قدما بغير وعى ، وإذا به يرى صاعقة تنقض على المـكان الذي كان يشغل ... قد كان السجن والرفض والدمار منه قاب قوسين أو أدنى ؛ وهاهو ذايطمئن إلى مجلسه بين أسرته آمناً بمنجاة من كل دمار ، يستقبل من الغد حياة رغدة مترفة ، فكم بالحياة من معجزات!

وعلى رغم كل هذا لم يكن سعيداً تمام السعادة، ولم يصف ذهنه كل الصفاء واستمر فى تأملات عميقة . لقـد عاش طول عمره حياة راكدة راتبة ؛ أما الساعات القلائل — القلائل !! — الأخيرة فقد ابتلى فيها بما لم يبتل به فى عمره الطويل المديد إذ أثارت نفسه عقله وجعلت من بحيرة نفسه الآسـنة محيطاً مضطرباً عاصفاً

لقد خلصه الله من العذاب ، ولـكن هل يستحق الخلاص وهو الآثم الشرير الذى هم أن يقارف السرقة والقتل ؟ ثم عمته المرحومة ؟ إنه يدرك حالتها الآن بغير العقل الذى كان يصورها له ويعطف عليها بعد أن أمسى عطفه وقسوته لديها سـيين ، فقد عاشت بائسة حزينة تجتر الهموم والآلام ، وكانت حياتهـا فرضاً ثقيلاً عليها وعلى الآخرين . نعم كانت قاسية شديدة ، فوق كل احتمال ، ومع هـذا فـكيف كان يمكن أن تكون غير ما كانت ؟ ومن يخلو من جانب بل من جوانب كريهة ؟ أليس هو فى أعماقه قاتلا سارقاً مدلساً ؟ وما هو إلا صورة تتكاثر وتتعدد فتكوّن عالم الناس ... ومع هذا فلا يجوز أن ينسى أن هـذا الشر غالباً ما ينكشف عن ضعف وجهل وبؤس ، كما انكشف شذوذ عمته عن ترمل وثكل ، وكما ينكشف تخبطه وسوء نواياه عن محبة فائقة لأبنائه الأبرياء ، وقد أذن الله فعالج الشر والبؤس برحمته ، والرحمة أسمى حلم فى الوجود ، ولـكنه لا يستطيع أن ينسى أيضاً أنها سُبقت هنا بكذبة ابنته وموت عمته ، فكيف يكون الموت والـكذب من ممهدات الرحمة ؟

حقاً إنه مهما ادعى التأمل فسيبقى أمامه ما يعجز عقله ويربكه . وإذا كان أمر الدنيا على هذا النحو فلن يمنع الدمع الذى تبعثه مآسيها إلى العين الابتسام من اعتلاء الشفتين ، ولقد ضاق صدره وأرقه السهاد فهتف من أعماقه :

— من لى بزوزو الآن ؟.. فإن ابتسامتها العذبة ونظرتها الطاهرة ويدها الصغيرة لحقيقة بأن تصرف عنى أفكار هذا الليل وتسكب فى قلبى الطمأنينة والسلام ...

نجيب محفوظ

بسمة الجيوكندا

للكاتب الانكليزي ألدوس هكسلي

بقلم الأديب حسن حبشي

— ١ —

أقبلت خادمه الحسناء جانيت تعلن لمستر هتن قدوم سيدتها بقولها :

— ها هي ذي مس اسبنس قادمة على أثري يا سيدي

— شكراً لك

بهذه الإجابة المختصرة أجاب مستر (هَتُن) دون أن يلتفت لخادمه جانيت اسبنس التي ارتسمت على وجهها أمارات القبح الدّال على خبث الطبع ولؤم السريرة ، فلا جرم أن كان مستر هتن شديد العزوف عن التطلع إلى وجهها إلا إذا أرغمته الظروف على ذلك . وأغلق الباب ، فظل هتن وحيداً ، فأخذ يذرع أرجاء الغرفة جيئةً وذهاباً ، متأملاً بعينين نفاذتين ما تحويه من فخم المتاع وفاخر الرياش

كانت هناك صور من زخارف اليونان وأخرى من معارض الرومان ، ورسوم ملونة من أروع ماخطته يد التليان ؛ ينطق فنها بقيمتها وثمنها ؛ أما جانييت سبنس فقد كانت فتاة عاملة صريحة ، ذكية الفؤاد ، ذات ميل للفن وذوق رفيع ، وقد أكسبها ذلك معرفتها بفنان بارع ، ليس له من مأوى غير أفاريز الطرق ، رسم لها صورة رائعة ، ولم يتناول عليها أجراً سوى نصف جنيه ، على حين قد دفعت هي خمسة وثلاثين شلناً ثمناً للإطار وحده . لذلك طالما سمعها (هتن) تشيد بذكر هذه القصة . وكم كانت تغالي في ذكر تقليده رسومها الزيتية قائلة بملء فيها : « فنان من الطراز الأول لا يأويه غير الشارع ! » وكان الحرف الأول من كلمة « فنان » يبدو واضحاً جلياً أثناء كلامها . وإنه ليخيل إليك وأنت تسمعها تتحدث عنه ، أنها قد نالت حظاً من عظمته بنصف جنيه قدمته أجراً له على محاكاته صورتها ؛ ولم تكن تنسى أن تثني على حسن ذوقها وعمق بصيرتها ، فما أزهد الدهر في مثل هذا الفنان ! وما أسعد جانيت العزيزة بما نالته من الأيام !

وقف هتن أمام مرآة مستطيلة مائلاً إليها بصدره قليلا ، ليملأ نظره من ملامح وجهه ، ثم أمرّ أصبعاً ليناً على شاربه الأصفر المجعد ، كأنما مرت عليه عشرون سنة ، بينما ظل شاربه حافظاً للونه ، لا يظهر فيه أثر للصلع إلا في مقدمة رأسه كأنها رأس « شكسبير » كما قال حينما رأى صقالها واتساعها فوق جبهته . وكان يقول « إن كثيراً من الناس في انتظار سؤالنا من غير سلطان عليهم ، وآخرون غيرهم على نحوهم فوق البحار ، فيالها من عظمة تزرى بعظمة شكسبير حتى ولو كان معاصري اليوم ، بل

قل عظمة « ملتن » أليس كذلك ؟ ملتن ؟ لا بل عظمة عذراء المسيح ! »

وكان النساء يسمينه « فتى الرجولة » فلا عجب أن أحببْنَه ؛ وخاصة لأجل شاربه الأصفر وطباقه العطر

تبسم هتن ثانية ، وأخذ يتسلى بمداعبة نفسه قائلاً : «أترانى قد بلغتُ عظمة عذراء المسيح ؟ لا لا ! بل مسيح العذارى ! حسن جداً ! مسيح العذارى » وودّ إذْ ذاك لو ألقى حوله من يستمع إليه ثم قال : « وا أسفاه ! إن لم تقدّر شأنى جانييت ! »

وانتصب بعد ذلك قائماً ، ومسح رأسه بيده ، ثم عاد إلى تطوافه فى الغرفة متأففاً من المناظر الرومانية لحلوها من مناظر البهجة والسرور ؛ وفجأة حك الشك فى صدره مخافة أن تكون جانييت واقفة على باب الغرفة تسمع ما يقول ، فنهض ميمماً شطر الباب ، حتى ليخيّل للرائى حين ذاك أن مستر هتن قادم على عمل إجرامى ، إذ أن صدور مثل هذه الحركات الصامتة كان يثير الريبة في النفوس ؛ وتواردت الخواطر على ذهنه تباعاً مخافة أن تكون قد سمعت كل حديثه وشاهدت حركاته وما كان منه أمام المرآة ، ثم قال على حدة : « كلا إن هذا بعيد الوقوع » بيد أن هذا لم يذهب روعه

والتفت فرآها ، فذهب نحوها مبتسما ، ماداً يده لمصافحتها قائلاً :

— أى جانييت ! لقد ملأتنى عجباً ودهشة

فتبسمت هي الأخرى أيضاً ابتسامة الجيوكوندا — وكان يدعوها بذلك فى لحظات الدعابة والمجون — وإذ كانت جانييت قد اعتقدت فى نفسها تلك الصفة ، فقد حاولت أن تحيا وفق حياة « ليوناردو ڤنشى » ، وكانت إذا صافحت مسترهتن ، ابتسمت له فى سكون وهدوء كما هو شأن الجيوكوندا . . . ثم عاد هتن يقول :

— آمل أن تكونى بخير كما أتوسم

وإذ ذاك لاحت دلائل الدهشة واضحةً على جبينها ... كان لها فم صغير تضمه إلى الأمام فيشبه المنقار الدقيق وله فتحة صغيرة فى وسطه ، كأنما هيئت للصغير فكان أشبه شيء بشباة القلم تُرى من الأمام ، ويعلو الفم أنف جميل كأنه سطر بديع مستقيم ، ركّبتْ أعلاه عينان رجراجتان ، وكان يخيل لناظرها أن بهما انتفاخاً واحتقاناً ، ولكنهما جميلتان أخاذتان ، يظللهما حاجبان مقوّسان كأنهما خطان أسودان ، يزيدان جمالها هيبة وجلالاً ، ويكسو رأسها شعر فاحم رومانىّ أشبه بحاجبيها ، فكأنها غادة رومانية

أخذ هتن فى حديثه فقال :

— أحسبنى قد ظفرت بمغنم فى طريقى إلى البيت ، وإنه ليحسن بى أن أعود إلى هنا ثانياً ، ثم أخذ يلوّح بيده مشيراً إلى أصص الزهر وأشعة الشمس وما تحت النوافذ من مروج سندسية ثم قال :

— أجل ! يحسن بى أن أعود إلى الريف بعد قضاء سحابة النهار فى المدينة

ثم أشارت إليه جانييت ليجلس على كرسى بجوارها ، ولكنه أبى وامتنع قائلاً :

— حقّا إننى لا أستطيع الجلوس ، إذ أرانى مضطرًّا للعودة لأرى ما آل إليه حال « إميلى » لأنها كانت متوعكة المزاج بالأمس

لكنه جلس مواصلاً حديثه فقال :

— نعم إنها مصابة ببرد الكبد الذى كثيراً ما يعاودها ، ورأيي فى النساء ...

ثم سكت فجأة ، متصنعاً السعال رغبة منه فى إخفاء حقيقة سبقه لسانه بالتلميح إليها ، وكاد أن يزل فيذكرها ... كان يريد أن يقول : « إن النساء ضعيفات الجهاز الهضمى ، وأولى بهن ألا يتزوجن » بيد أن الإشارة كانت قاسية ، وما كان هذا الرأى صادراً منه عن عقيدة . ولكن جانييت كانت فتاة ذكية ، وتعرف ما بينه وبين إميلى زوجته ، ثم قال هتن :

— إن إميلى تودّ أن تعافى لتراك على مائدة الإفطار غداً ، فهل لك أن تأتى ؟ ثم تبسم قائلاً :

— وإنى لأوجه إليك الدعوة ، فاعلمى هذا

طأطأت جانييت رأسها خجلاً ، فانتهز «هتن» رؤية احمرار خدّيها ، وعد ذلك غُنماً جليلاً ، ثم مسح شاربه ، فقالت :

— فى نيتى الحضور لو كنت على ثقة بأن صحة « إميلى » ستمكنها من لقائنا

— أجل إن فى قدومك خيراً عليها بل علينا جميعاً ، وثلاثة فى الحياة الزوجية أفضل عِشْرَةً من اثنين

— صه ! ما أشبه قولك بعواء الكلاب !

حقاً ما كان أسرع هتن إلى العواء خصوصاً عند سماعه الكلمة الأخيرة ، فلشد ما كانت تثيره أكثر من أى كلمة أخرى . غير أنه خالف سنته هذه المرة ، فبدل أن يعوى أخذ يعارض قائلاً :

لا ! لا ! إنما أقول الصدق ولو كان مرًّا ، وكما تعلمين لا تأتى الحقيقة مطابقة للخيال في كل حين ، وإن كان ذلك لا يضعف من ثقتى فى الخيال الذى أومن به بقوة ؛ وخاصة الخيال المترتب على عقد زوجية بضم خلين متآلفين ، وأكبر ظنى إذ ذاك أنه أقرب إلى التحقيق ، بل أؤكد ذلك

وقف « هتن » متأملاً فيها ينظر إليها نظر المستريب قائلاً لنفسه :

— عذراء فى السادسة والثلاثين ولا تزال غضة حافظة لجمالها ! لا بد من شىء خفىّ يحوم حولها

غير أن جانييت لم تجب على ذلك بحرف واحد ، بل ظلّت مبتسمة ، وكثيراً ما كانت ابتسامتها الصامتة تملأ صدره غيظاً ، ثم نهض قائماً وقال :

— الآن حان وقت الذهاب ، فوداعاً أيتها الجيوكوندا الساحرة !

بيد أن الابتسامة استحالت دهشة أطلت من فتحة ضيقة من بين شفتيها ، حينذاك انحنى هتن انحناءة فنية ثم قبّل أناملها المبسوطة ، وكانت هذه أول مرة نال فيها ذلك الغنم العظيم الذى لم يقابل من ناحيتها بامتعاض ، مما شجعه على أن يقول لها :

— إنى لأنظر إلى الغد بأمل فيك كبير

— أحقاً ما تقول ؟

ولم يكن جوابه حينذاك إلا أن طبع على يدها قبلة أخرى ، ثم استدار ناحية الباب ، فرافقته إليه سائلة إياه : أين عربتك ؟

— تركتها عند مبدأ الطريق

— سأصحبك إليها

— لا لا ! ليس لك أن تأتى شيئاً من ذلك ، وأصارحك القول إنى أحتج على ذلك . لكنها فاجأته ببسمة الجيوكوندا ، ثم عارضته فى كلامه قائلة : « لقد عزمت على المجىء » فرفع هتن إذ ذاك

يده مظهراً عدم رضاه ، وبحركة غريبة قبّل يدها قبلة الوداع ثم شرع يجرى فى الطريق على أطراف أصابعه بخطوات واسعة أشبه بالصبيان ، وكم كان معجباً بهذه المشية الغريبة ، لكن سره أن المرحلة ليست طويلة ، وعند آخر خطوة ، وقبل أن يتوارى عند منعطف الطريق ، وقبل أن يتوارى البيت عن أنظاره التفت خلفه ، فأبصر جانييت لمّا تزل واقفة على الدّرج ، وابتسامتها لم تزايل شفتيها ، فأشار إليها إشارة الوداع ، وبعث إليها مع الريح قبلة رن صداها قوياً ، ثم عاد إلى وثبه العجيب . وما لبث أن دار حول آخر دوحة عالية ، وترك الوثب جانباً وعاد يمشى كعادته ، وتناول منديله ومسح به رقبته وياقته وهو يقول فى نفسه : « ما أعظم هذا الجهل ، وأشد شينه ! أما على الأرض شبيه لجانييت العزيزة ؟ أجل ليس عليها إلاّ هى

والحق أنه كان أعظم جهلاً ، حينما كان يحس بجهله ، ويأبى إلاّ أن يمعنَ فيه

وانتهى إلى حيث تقف عربته الفاخرة ، فقال للسائق وقد أخذ مكانه فى العربة « هيا إلى البيت رأساً يا مستر ناب ، وقف عند كل تقاطع كما هى العادة » ثم جذب باب العربة وأقبل على الوَحشة التى كانت تعمّ داخلها

ولكن ما لبث أن سمع من الداخل صوتاً رقيقاً واضحاً يقول له :

— ماذا أيها الدب العظيم ؟ كم لبثت من عمرك؟

غير أن مخارج الحروف لم تكن تصل إلى سمعه جيداً ، فانحنى بجسمه الضخم ، واتخذ مكانه فى العربة كما يفعل الحيوان حين يباغت فيهرول إلى جحره ، وما إن أغلق الباب وأخذت العربة تشق طريقها حتى قال :

— تسألينى كم عمرى ؟ لعلك تنتفضين منه لو وجدته كثيراً !

ثم أسند ظهره إلى مقعد منخفض وقد احتوشه الدفء من كل جانب ، وأطل بجانبه رأس صغير ذو وجه باش يتنهّد تنهّد السالم المطمئن ويقول : « ما أعظمك من دب ! » فالتفت هتن بنفس مُلؤها الانفعال إلى ذلك الوجه الصغير الذى يجاوره ويحاوره ، ثم أمرّ أصابعه خلال خصلات من الشعر المعطر قائلاً :

— أتعلمين يا دوريس أنك أشبه شىء بصورة لويز دى كروّاى ؟

— ومن هي لويز دى كروای هذه ؟ وما شأنها ؟

وحينذاك غمر (هتن) وجه الفتاة دوريس بسيل من القبل ، والسيارة مجدة فى اختراق طريقها ولاح لهما ظهر السائق كسد حجرى أو ظهر تمثال وإذ ذاك قالت لهتن :

— أسألك ألاّ تمسنى بيديك فإنهما يحدثان فى نفسى تأثيرات كهربائية . فزاد ذلك من إحساسه وشعوره ، ثم قال وقد جذبه صوتها الحنون وجسدها الأملس :

— وهل حدث فى حياة امرئ أن اكتشف ما فى جسمه ؟ إن الكهربائية ليست فىّ بل فيك أنت ... آه ... دوريس ... دوريس ...

وكان يعطرها بقبلاته الحارّة ، وغمرت قبلاته عنقها الفضى الجميل الذى أسلمته إياه فى استسلام وسكون ، ثم تذكر حينذاك دودة البحر ذات الفراء الحريرى الخاص ؛ ثم أكد لنفسه أنه لابد ذاهب إلى نابلى ليرى الحيوانات ذات الأصداف العجيبة الخلقة ، فقالت له :

— أيها الدبّ العظيم المغرم بعلم الحيوان . إنها

حيوانات برية فما أعجب نكاتك ، لقد عظم سروري الآن

— وإني لجد مسرور مثلك . أليس كذلك ؟

— بودّي لو أعرف الحقيقة ، أخبرني أحقاً ترى ذلك أم باطلاً ؟

— واهاً لك ياعزيزتي ، إن طلبك هذا عسير . لقد قضيت ثلاثين عاماً في البحث عنه ولا أزال

— إنما أحب الجدّ والصراحة أيها الدب العظيم ، أود لو أعرف صحة هذا الأمر فإن يكن صواباً فسأبقى معك ينعم كلانا بحب الآخر ، ويكون في ذلك ما يبعث فيّ تأثيرك الكهربائي عند ما تمسني يداك

— تريدين الحق ؟ لك ما شئت ، وإنه لمن الخير أن توجد فيك تأثيرات كهربائية فوق ما عرفنا في الطبائع البشرية . إذن دونك كتابات « فرويد » إقرأيها وستجدين أن ذلك خزعبلات شيطانية .

— واهاً لك ! لقد أحجمت عن مساعدتي ، فما يمنعك من سلوك سبيل الجدّ ؟ هل سبب ذلك أنك تعلم ما أكون فيه من الشقاء متى عرفت أن ذلك غير صحيح ؟ لعلك تعلم أن هناك جهنم وما شاكل ذلك من معتقدات ، أما أنا فقد حرت في أمري ، وأحياناً أرى أنه خليق بي أن أدع حبك جانبا

— وهل يسعك ذلك ؟

— لا ، لا أستطيع ذلك كما تعلم ، غير أنه في مكنتي أن أفرّ من أمامك وأخفي نفسي عنك ، وأغلق دونها الأبواب ، وأرغمها ألاّ تعود إليك

— فضمها إلى صدره وقال : ما أعجب شأنك أيها الصغيرة الغافلة !!

— آه ياعزيزي ، أود أن يكون ما أسألك عنه صحيحاً وألا يكون هناك ما يكدر خاطري وقتاً ما

وإذ ذاك أخذته الشفقة على هذه المخلوقة وتأثرت نفسه لهذه المسكينة ، ووضع خدّه على شعرها . وهكذا التفّ بعضهما ببعض ، بينما العربة آخذة في قطع الطريق ، وشقّ غباره ثم وقفت بهما عند أحد الأعمدة وترجلت دوريس ، أما هو فقد بقي في مكانه وودّعها قائلاً :

— في رعاية الله أيتها العزيزة !!

ثم انطلقت العربة بكل قوتها ، حتى اختفت في منعطف الطريق تاركة وراءها دوريس الجميلة ، خائرة القوى مشتتة الفكر من أثر رقة تلك القبل ، والشعور الكهربائي الساري فيها من أثر مسّ يديه القويتين . ثم أخذت تتنفس الصعداء لتروّح عن نفسها عناء الفكر ، حتى إذا استجمعت قواها أخذت طريقها إلى البيت وقد سارت نصف ميل وهي تفكر في حيلة كاذبة تنفعها وتدفع بها أسئلة أهل المنزل عن سرّ تأخرها حتى ذلك الوقت

أما هتن فقد ظل وحيداً في العربة

— ٢ —

كان مستر (هتن) جالساً على أريكة في صالون السيدات يلعب الورق . وبالرغم من أن حرارة الجو كانت شديدة في مساء ذلك اليوم من أيام يوليو فقد سجر التنور بنار متأججة وتمدّد أمام الموقد كلب « بوميراني » خدرته الحرارة وأخلد سوء الهضم والمعدة المكتظة ، فأغمض ... وشعر مستر هتن بارتفاع الحرارة فقال في تأفف وضجر

— أليس الحر شديداً هنا ؟

فأجابه صوت ضعيف النبرات لينها ، هو صوت زوجته « إميلى » تقول :

— لقد علمتَ أنه لا بد لى من مكان دافىء ، حتى تذهب الرعدة التى تسرى فى أوصال جسمى والرعشة التى ترتجف تحتها

— آمل أن تكونى أحسن صحة هذه الليلة !

— لقد أخذت العافية تدب قليلا فى جسدى ، بيْد أن الشك ما زال يقض مضجعى . وصمت كل منهما وانتصب (هتن) واقفاً على قدميه ، مسنداً ظهره إلى مظلة فوق الموقد ، ثم نظر إلى الكلب الجاثم عند قدميه ، وأخذ يقلّبه ويداعبه بمقدم حذائه ، ويمسح صدره الأرقط وبطنه ، ثم عاد إلى اللعب . وإذ كاد ينتصر على إميلى أخذت هذه ورقةً فانحاز النصر إلى جانبها بعد أن كاد يولّى عنها ثم قالت :

— يظن الدكتور لبارد أنه من المحتم علىّ أن أذهب إلى (اللاَندرود ويلز) هذ الصيف !

— حسن ! فلتذهبى يا عزيزتى كيفما شئتِ

ثم أخذ مستر هتن يفكّر فى حوادث المساء وكيف قطع الطريق هو ودوريس وقد تركا العربة فى انتظارهما عند الغابة ذات الأشجار الكثيفة ؛ ثم قالت إميلى :

— الآن سأشرب جرعة من الماء لأطفىء اللهب المتّقد فى كبدى وإن كان الطبيب يحتم علىّ فى تقريره أن أشرب الدواء ، وإجراء بعض العلاجات الكهربائية أيضاً . وكانت إميلى ممسكة بقبعتها ، ومن ثم أخذت تجري خلف أربع فراشات زرق ، كنّ يرفرفن فوق بعض الزهور بحالة تشبه اهتزاز اللهب الأزرق ، وإن كان اللهب يفنى ؛ حتى إذا أمسكتها ضحكت وصاحت كما يصيح الأطفال سروراً ، ثم قال هتن لأميلى :

— أؤكد لك أن صحتك تتحسن يا عزيزتى

— ولكنى فى شك من مجيئك معي يا صديقى

— إنك تعلمين أنى ذاهب إلى اسكتلندا فى أواخر هذا الشهر !

وأخذ هتن ينظر إليها نظرة المؤمل المستعطف ، ولكنها بدّدت هذا السكون بقولها :

— إن التفكير فى مثل هذه الرحلة أشبه بالحلم الرّقاف يهوّم بالأذهان وهى فى سكرة النعاس وذهوله . ولست على ثقة مما إذا كان فى وسعى أن أقوم بها ، ولا يخفى عليك أنى لا أستطيع النوم فى الفنادق فضلاً عما أحمل من متاع ، وما أتكبد من آلام ... الحق أنى لا أقوى على السفر وحدى

— لكنك لن تكونى بمفردك ، إذ سوف تصحبك وصيفتك !

ثم صمت وتذكر كيف أنه تزوجها صحيحة فأصبحت مريضة ، وهكذا أخذت النسوة المريضات يحللن محل المتعافيات ، مما حدا به أن يتذكر أشعة الشمس الجميلة والفتاة اللعوب ، وما تبدلت إليه حالها حتى صارت محمومة قابعة فى غرفتها تئن وتتضجّر ثم قالت إميلي :

— أغلب ظنى أنى لا أستطيع الذهاب

— ولكن إطاعة الطبيب فرض واجب ، ولعلّ الانتقال يكسبك الصحة والنقاهة ؟

— ما أبعد ذلك عن ظنى ! !

— إنها كلمة الطبيب (لِبارْد) وهو عليم بما يقول !

— لا ! لا أقوى على تحمل ذلك فإنى ضعيفة

جداً واست أحتمل الذهاب وحدى .

— إن كل ما تقولين لغو لا جدوى وراءه ، ولا بد من تحمل هذه المتاعب إن كان ثم متاعب

— خير لى أن أبقى هنا آمنة مطمئنة حتى أموت

حينئذ تأوّه هتن تأوّهاً مراً وتضرع قائلاً :

— أى ربّ رحماك رفقاً بنا وسمعاً لشكاتنا مَناً منك . ما حيلة المرء إزاء ما تأتى به الظروف ؟ ثم هزّ كتفيه وغادر الغرفة

ولكنه أخذ يحاسب نفسه مخافة أن يكون قد أساء التصرف ، أو ندّت منه كلمات جارحة لشعورها ؛ فقد كان فى إبان شبابه لا يشعر بعطف أو رحمة نحو الضعفاء والمرضى وذوى العاهات فحسب ، بل كان يكرههم ويعافهم ، وكان ذلك نتيجة ذهابه ذات مرة فى رحلة إلى الطرف الشرقى عاد بعدها مملوءا بكراهية عميقة لا يمكن اقتلاعها . وبالرغم من أنه كان يعلم بادئ ذى بدء أن هذا الأمر جدّ عسير ، إلا أنه أخذ بمضى الزمن يطمئن إليه ، وترتاح له نفسه ، فأصبح لا يشعر بوخز الضمير ، بل غدا ذلك سجيّةً فيه وطبعاً . . . لقد كانت (إميلى) صحيحة حسناء عند اقترانه بها ، وقد بادلها الحب إذ ذاك ، لكن ما باله الآن يعد نفسه غير مسؤول عما آل إليه أمرها ؟ . تناول هتن الغداء بمفرده فأثر الجوّ فى نفسه ، وإذا بثورته تنقلب هدوءاً أو ما هو أشبه بالهدوء ، ولكى يكفّر عن التهور الذى بدر منه دخل غرفة زوجته واستأذنها ، وكانت دلائل التوبة والندم واضحةً على محياه وتكاد تنطق بها عيناه ، وسألها أن يقرأ لها فأذنت شاكرة له طيب نفسه ، فاقترح أن يقرأ لها بالفرنسية فرضيت وقالت له : « تريد التحدث إلىّ بالفرنسية ؟ ما أحبها إلىّ ! » وكانت تفخر بأنها لغة « راسين » التى تحبها كما تحب طعام الفاصوليا

حينئذ أسرع (هتن) إلى المكتبة وعاد يحمل مجلداً أصفر وشرع يقرأ لها فيه . ولقد أولى النطق ومخارج الأصوات كل عنايته واهتمامه حتى كان موضع الاعجاب وحتى كان لحسن نطقه أثر بالغ فى إلباس القصة التى كان يقرؤها ثوباً رائعاً . وما أتم خمس عشرة صفحة حتى طن فى أذنه صوت كأنه حشرجة النفس ، فالتفت صوب زوجته فرآها قد أسلمت نفسها للسبات العميق ، فلبث برهة يرقب ذلك الوجه المسجّى وقد عرته دهشة خفيفة ... لقد كانت جميلة فى فجر حياتها ، فلم يكن ليتطلّع إليها إلا وهو يشعر بهالة من الحسن الرفاف تحيط بهذا الجمال الفاتن ، أما الآن فقد تبدل كل شىء ، ودب المرض فى أوصالها حتى هزلت وصارت أشبه بالموتى ، وتجعد جلدها الأملس فوق عظام خدها البارزة وأرنبة أنفها المحدودب ، وغارت عيناها فى محاجرها العميقة ، وحينذاك ألقى الصباح ضوءه على جبينها الشاحب فتبين (هتن) ما فيه من تجاعيد وأخاديد ، حتى لا يشك من رآه فى أنه وجه ميت ، فأخذته حينذاك رعدة تمشت فى جسده ، وخطا على أطراف أصابعه وغادر الغرفة

وفى اليوم التالى نزل هتن إلى غرفة الطعام حيث كانت زوجته قد استردت بعض صحتها المنهوكة إثر نوبة أصابتها فى الليل ، اشتد فيها خفقان القلب . تحملت إميلى رغم قوتها ومضت لتشترك فى إكرام ضيفتها « جانيت اسبنس » ، وسمت اهتمامها بأمر (اللاندورد ويلز) بنفس ملؤها الشفقة ، غير أن ما قالته قد سمع

مراراً حتى بحته الأسماع وتعودته ، ثم اتكأت بصدرها إلى الأمام ، واندفعت فى الكلام كأنما هى قذيفة انطلقت ، وكأنها استحالت إلى آلة أوتوماتيكية تمطر من أمامها وابلاً من الكلمات الدالة على الرأفة وجاراها هتن ، بيد أنه كان يستعمل عبارات أدبية أو فلسفية من مقولات مترلنك ومسز بيزانت وبرجسن ، ووليام جيمس ، وكأن قذف الكلمات أصبح نوعاً من الدواء . وأخذت مسز (هتن) تتكلم عن الأرق وبالغت فى شأن العقاقير ومزاياها الطبية ، وكان حديثها أشبه بزهرة تستقبل الشمس

أخذ هتن ينظر فى سكون ودعة ، كأن منظر جانيت سبنس قد بعث فيه دهشة قوية ، ولم يكن الرجل ذا خيال خصب ليصور لنفسه أن كل وجه يخفي تحته فناً من النقد لقياس جمال الأشياء وغرابتها ، حتى إن حديث كل امرأة عنده وإن قل شبيه ببخار معقود فوق خليج مجهول ، فهذه زوجته ودوريس مثلا لا يزيد مظهرها شيئاً على باطنهما ؛ أما جانيت اسبنس فقد كانت من نوع آخر ، فهنا يتأكد الناظر أن خلف تلك الحواجب الرومانية وبسمة الجيوكوندا هذه وجهاً غريباً . ولعل السؤال الوحيد هو ما ماهيّة ذلك السر الذى لم يستطع هتن كشف الستار عنه ؟

ثم دار الحديث بين مسز هتن وبين جانيت التي قالت لها :

— قد لا تذهبين إلى «اللاندرود» بعد ؛ ومتى تحسنت صحتك عاجلاً فإن الطبيب لبارد يرجع فى طلبه ؟

— هذا هو رجائى الوحيد ، وإنى لأحس بالعافية اليوم تدب فى أوصالى المنهوكة

وهنا تأثر المستر « هتن » حيث كان في حاجة ملحة إلى مثل هذه الشفقة التى كان فقدها سبباً فى تضعضع صحتها يوماً بعد يوم ، إلا أنه أخذ يحدث نفسه بأن كل ما حدث إنما هو إحساس بالتقدم وليس تقدماً حقيقيًّا . إذ الشفقة لا تداوى الكبد المريضة ولا القلب الضعيف

عرف هتن أن زوجته خالفت أمر الطبيب ، فالتهمت بعضاً من الزبيب فقال لها :

— لو أننى كنتُ إياك ما تناولتُ الزبيب بعد أن حرم الطبيب كل ما له بشرة سميكة وبذور !!

— ولكنى أميل إليه وأشعر اليوم بتقدم فى صحتى

فقالت جانيت : لا تتعسّف في حكمك واتئد فى إسرافك !

ثم أجالت ناظريها فى هتن وزوجته وقالت :

— دعها تأكل ما تشاء وتشتهى ، فإن ذلك يزيدها قوة

فقالت إميلى : « شكراً لك يا عزيزتى » ، ثم نهضت لتتناول بعض الزبيب المغلى . فقال هتن :

— إذن لا تلومينى على شىء إن مسك ما لا أحب من جراء ذلك !

— وهل لُمتكَ على شىء من قبل ... ؟

— لأنك غير واجدة مغمزاً تلومينى عليه ، لأنى زوج وفىّ

أخذ الجميع مجلسهم فى الحديقة بعد تناول الغداء ، وهم يصوّبون أنظارهم فى هذه المروج الفسيحة المحلّلة بالزنبق والأزهار المتلألئة بنورها المعدنى ، وكان دفء الهواء المعطر قد أدخل شيئاً من السرور على قلب مستر هتن ، فتنفس فى قوة ثم قال :

— ما أبهج الحياة لو كنا خالدين !

فرفعت زوجته يدها إلى الشمس ثم قالت :

— سنخلد لو كان فيها ثم خلود !

وإذ ذاك أحضرت الخادم القهوة فى أباريق فضية ، وفناجين بنفسجية ، ورتبتها على المنضدة بالقرب منهم فنادتها مسز هتن قائلة :

— أين الدواء يا كلارا ؟ أسرعى إلىّ به فى زجاجته البيضاء

فقال هتن : وسأذهب لأحضر لفافة من التبغ

ثم أسرع إلى داخل المنزل . وبينما هو يعبر الدهليز التفت فجأة إلى الخلف ، فأبصر الخادمة تمشى فى الحديقة ، وزوجته متكئة على مقعدها منهمكة فى فتح فدام قارورتها . أما جانييت اسبنس فقد كانت مستندة على المنضدة تصب القهوة فسألت مسز هتن :

— أتحبين السكر يا إميلى كثيراً ؟

— نعم ! شكراً لك يا عزيزتى : أكثرى منه لأنى سأشربها بعد الدواء ، كى تذهب بغضاضته

ثم أسندت رأسها إلى الوراء ، وأمالت قبعتها على وجهها لتخفى عن نظرها رؤية الشمس والسماء ووقفت خلفها جانييت ثم قالت لها :

— لقد وضعت لك ثلاث ملاعق ستذهب حتماً بمرارة الدواء . والآن ها هوذا هتن قد أحضره معه

أجل لقد ظهر هتن يحمل زجاجة خمر ملأى بشراب قاتم ناوله لزوجته قائلاً :

— ما أطيب رائحتها !

— وذلك أحسن ما فيها

ثم جرعته مرّة واحدة اقشعرت بعدها وقد ارتسمت أمارات العبوسة على وجهها وقالت :

أفٍّ له ما أبشعه من دواء ! إلىّ بالقهوة كى تذهب غضاضته

فأعطتها جانييت ما طلبت وأخذت ترشف منه نهلات كبيرة وهي تقول لجانييت

— لقد صيّرته كالشراب ولكن لا بأس فذلك خير ما يكون عقب مثل هذا الدواء الشديد

وفى منتصف الساعة الرابعة أحست المريضة بشىء من التعب يخدّر أعصابها ، ولم تكن تشعر بمثله من قبل ؛ ومن ثم يممت شطر حجرتها لتنام وترتاح جسدها . وكاد هتن أن يقول شيئاً عن الزبيب ولكنه تمالك نفسه وغيّر موضوع حديثه بقوله لها :

— ما أسرع تأثيره ! ألم أخبرك بذلك من قبل؟

ثم أخذ بيدها ليساعدها على الدخول وحاول أن يطمئن خاطرها المضطرب ونفسها المكدودة بقوله:

— ستشعرين بالصحة متى استرحت ، ولعلى لا أعود إليك إلا بعد الظهر وقد عادت إليك صحتك وراحتك :

— وإلام تذهب ؟

— سأذهب إلى جونسن هذا المساء كما تعلمين لنتحدث فى ذكرى الحرب

— بودّي ألاّ تذهب !

ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

— أما تستطيع البقاء بجانبي اليوم فإنى أستشعر الوحدة !

— وما الحيلة يا عزيزتى وقد واعدته منذ أسابيع ، ولكنى سأمضي الآن لأبحث عن جانييت

فقبلها بين عينيها ، وخرج إلى الحديقة حيث استقبلته جانييت بشوق ولهفة ثم قالت :

— إن زوجتك فى شدة المرض !

— ولكنها ستسر كثيراً بحضورك

— إن ذلك الدواء مزعج فقد جعلها فى مثل هذه الحال ، وقد ضعفت قوة هضمها . حقًّا إن معدتها قد اضطربت ، وأخشى أن يحدث شيء ما !

— من يدرى ؟ ربما لم يفحصها لبارد تماماً !

ثم فتح باب الحديقة الخارجى المطل على الطريق حيث كانت عربة جانييت فى انتظارها تستقلها فى العودة إلى منزلها ثم قالت :

— إن لبارد طبيب قروى وخير لك أن تستشير طبيباً إخصائياً

— أراك تكبرين من شأن الاخصائيين

فرفعت جانييت يدها محتجة وقالت :

— إن حالة زوجتك قد بلغت حداً من الخطورة يستوجب الشفقة والرثاء ، وإنى لجادَّة فيما أقول وأخشى أن يحدث ما ليس فى الحسبان ؟

فأمسك هتن بيدها وأدخلها العربة ، وأخذ السائق مكانه فيها ، وتأهبت للانطلاق . ولم يكن هتن يرغب فى أن يطيل الحديث معها فسألها فى رقة :

— هل تسمحين لى أن آمره بالسير ؟

فمالت نحوه وابتسمت له بسمة الجيوكوندا فقال لها :

— تذكرى أنى فى انتظارك لتعودى إلى رؤيتى ثانية عن قريب

على أنه قد تضجر وإن يكن قد لزم حدود الأدب . وما إن تحركت العربة حتى ودعها بيده ، وسره أن يبقى وحيداً

* * *

مضت بضع دقائق انطلق بعدها « هتن » إلى حيث كانت تنتظره « دوريس » عند منعطف الطريق ، فتناولا الغداء معاً فى فندق يبعد عن البيت عشرين ميلا . ولقد جمع الغداء بين الرداءة والاسراف فقد طُهِىَ فى فندق قروى أعدل سائقى العربات . وإن يكن قد ساء هتن فقد سر « دوريس » التى لم يكن الكدر يعرف إليها سبيلا ، وطلب هتن زجاجة من الشمبانيا . ولما أخذا طريقهما إلى البيت كانت دوريس على حال عظيمة من النشوة ، وكان الجو أدكن ، ولكن الناظر إلى الأمام كان يرى شبح السائق الساكن ، وشريطاً من الأرض تنيره أضواء المصابيح الأمامية للسيارة

بلغ هتن منزله وقد قاربت الساعة أن تدق مؤذنة بانتصاف الليل ، فلقيه الطبيب لبارد فى بهو البيت وكان رجلا قصير القامة كريم الكفَّيْن ، حسن الصورة ، أشبه بالنساء ، واسع العينين أكحلهما . وكان يقضى وقتاً طويلاً بجانب مرضاه يخفف عنهم آلامهم بلطفه ورقته ، مما يبعث السرور إلى النفوس ، وإن كانت مسحة الاتزان لا تفارقه أبداً . سأل هتن الطبيب :

— أى دكتور لبارد ! أراك هنا ! أما زالت إميلى مريضة ؟

— لقد بحثنا عنك طويلا فى بيت جونس فلم يقف لك أحد على خبر هناك

— بلى ، لم أكن هناك إذ حال بينى وبين الذهاب إليه قاهر

ثم قال فى نفسه : « ليس هناك أشد من أن يختبىء الانسان خلف ستار من الكذب »

فقال الطبيب : لقد كانت زوجك عطشى متلهفة إلى رؤيتك

فقال هتن وقد اتجه ناحية السلم

— الآن لا مانع من الذهاب إليها

فوضع الطبيب يده على كتف هتن قائلا : ريثما تأخرك !

فأراد هتن أن يتخذ المعارضة سلاحاً يدحض به أقواله فقال : « وهل ترانى تأخرت » ثم مد يده إلى جيبه بحجة أنه يريد إخراج ساعة ولكنه أرجعها خالية

— لقد قضت مسز هتن نحبها قبل ذلك بنصف ساعة

بذلك نطق الطبيب الذى استمر صوته على لينه ولم يفارق الأسى عينيه ، ثم أخذ يقص خبر الموت وحالته كأنه يتكلم عن لعبة « الكريكت ماتش » وذكر أن شتى الحيل قد وقفت مكتوفة الذراعين لا تجدى أمام القدر المحتوم وقد انقطع كل أمل . كل ذلك وهتن لم ينقطع عن التفكير وتذكر كلمات جانيت اسبنس إذ قالت : « لابد من حصول شىء فى أى لحظة » ثم قال على حدة : « حقاً ، لقد كانت صادقة فى قولها ونبوءتها »

ثم سأل هتن الطبيب قائلاً : ما الذي حدث وماذا كان السبب ؟

فأخذ الطبيب يفصل الحادث قائلاً :

— انها سكتة قلبية نتجت عن نوبة شديدة عقب تناول بعض الأطعمة المحذورة

— كالزبيب مثلا ؟

— شىء أشبه بهذا أو هو نفسه ، وقد كانت وطأته على القلب قاسية ، وكان من جرائه تلك النوبة الخطيرة ؛ ولعل بعض الأجهزة قد تعطلت فى الداخل

وعلى كل حال فقد انقضى الأمر واستراحت فلن تحس ألماً بعد

— ٣ —

« يا للحسرة ! وافق يوم تشييع الجنازة يوم مباراة إتن وهارو »

هكذا قال الجنرال « جريجو » وكان واقفاً تحت مظلة الكنيسة ممسكاً قبعته الطويلة بيمناه ، ومجففاً العرق من جبينه ومحياه

سمع هتن ذلك القول فتمالك شعوره على الرغم منه بعد أن كاد يمس الرجل بأذى فى بدنه ، وقد كان بوده أن يوجه إليه لكمة قوية فى وجهه الأحمر العريض ثم قال :

— أيها الحيوان الضخم الجعد الوجه ، أليس للميت عندك حرمة ؟ أما تستحى من أحد ؟

ولقد كان الحق فى جانب « هتن » فلم يجب الآخر بكلمة ما ؛ أما مستر هتن فقد ألقى بنفسه بجانب القبر يتأوه ويتنهد ويبكى زوجته قائلاً :

— إميلى ! أيتها المسكينة ، لقد آب الجميع يا إميلى إلى دورهم ونسوك ، وعادت إلى أوجههم بشاشتها وطلاقتها ، أما أنت فقد ثويت فى قاع حفرة على بعد سبعة أقدام بينما « جريجو » واقف يشكو سوء حظه لأنه لم يشهد المباراة ! !

أخذ هتن بعد أن هال التراب على قبرها وسواه يحدق فى الجموع السوداء التى حوله والتى أخذت تغادر ساحة الكنيسة ، إلى موقف العربات والسيارات ، وبالرغم مما كانت تتحلى به الأرض حينئذ من حشائش نضرة وأزهار متلألئة وأوراق لامعة ، فقد كانت دلائل الأسى مرتسمة على أوجه الجميع ، وشملهم الحزن . ولقد سرى عن

نفسه بعض الشجن أن الفناء حتم على الجميع

جلس (هتن) فى مكتبه ذلك المساء يطالع حياة « ملتن » ولم يكن هناك من داع يحمله على اختيار حياة ملتن لذاتها ، بل ان ذلك الكتاب كان أول كتاب تناولته يده . وما إن فرغ منها عند منتصف الليل ، حتى نهض من كرسيه وأغلق النوافذ وغادر المكتبة إلى الردهة حيث كان الليل صافياً ساكناً . فأخذ يصعد نظره فى النجوم يتأملها ويتأمل ما بينها من فضاء ، ثم يرد طرفه ناحية الأزهار الباهتة ، ويسرح عينيه فيما وراء ذلك من فضاء لايبدد وحشته غير القمر .

أخذ بعد ذلك يفكر فى قوة مضطربة فيقول :

« ها هى ذى النجوم ، وها هو ملتن ، بل ها هو الرجل الذى شابه الليل ونجومه فما أعظم نبله ! ولكن أحقاً أن هناك فرقاً بين النبيل وغير النبيل ؟.. ملتن .. والنجوم .. والموت .. والروح والجسم .. والأرض والسماء ... لعل فى هذه بعض الشيء من النبل ... ما الذى ناله ملتن ؟ لا شيء . وأنا ... ؟ أنا ! ... أجل ! لا شيء غير صدر « دوريس » الصغير البض »

وتواردت الخواطر المبهمة على خياله سراعاً كأنما تستعرضها ذاكرته : ترى أيها أعظم شأناً : ملتن أم النجوم ؟ أم الموت ؟ أم إميلى فى قبرها ؟ أم دوريس ؟ أم مستر هتن نفسه ؟ لا شك أنه أعظم الجميع !

أف له ! لقد صار أنانىّ الطبع ، لكل شىء — قل أو كثر — سلطان على نفسه . وفى لحظة سكون صاح قائلاً « لقد عزمت . لقد عزمت » غير أن صوته كان يذهب فى ظلام الليل البهيم كصرخة فى واد ، ولكن خيل إليه أنه أقسم يميناً عظيمة ، يحق للآلهة أن ترتبط بها ... « لقد عزمت ! ... لقد عزمت ... ! لقد مرت بنا أعياد رأس السنة والميلاد والأعياد المقدسة كما مرت بى تلك التوبة الكبرى عن الخلاعة والمجون ، ومثل هاتيك الأقسام »

لقد ذهب كل ذلك بدداً ، حتى اليمين تلاشت كما يتلاشى الدخان فى آفاق الجو ، وصار كأن لم يكن . غير أن ما كان حوله إذ ذاك كان يوحى بالرهبة ، فآلى على نفسه أن يبدل منهاج سلوكه فى المستقبل ، فيحيا حياة الرجل العامل العاقل ، ويكبح جماح نفسه الثائرة ، ويوجهها إلى طرق الخير بعد أن ظل طويلا يضلل النسوة ويخدعهن بعبارات الحب الموهوم والأمل الكاذب ، ولكن هاهوذا قد عزم ولابد من العمل .

فكان يقضى الصباح فى تفقد أعماله الزراعية فيركب مع رئيس العمال ، ويدور حول الأرض ليرى سير العمل فيها وما اتبع من أحدث الطرق الزراعية وخاصة فى مخازن الحبوب والأسمدة الصناعية والحصاد ونحو ذلك ، وينفق باقي اليوم فى المطالعة الجدية ، إذ كان قد اعتزم منذ ردح طويل أن يؤلف كتاباً عن « تأثير الأمراض فى المدينة »

ذهب هتن بعد ذلك إلى فراشه خاشعاً تملأ التوبة نفسه ، وتهيمن على جوانحه ، وتسيطر على كل جارحة فيه ، وخيل إليه أن الفضيلة قد اتخذت سبيلها إلى نفسه فنام ثمانى ساعات ، ثم استيقظ فإذا الشمس قد شعشع نورها ، وكست الأفق ضياء صافياً ، بيد أنه لم يجد فى نفسه أثراً لتلك الدوافع التى أحس بها مساء بل عاد فى الصباح إلى حياته المرحة ... حياة الخديعة باسم الحب ...

وتلاشت العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه ، فكأن ملتن ، وكأن الموت قد تغيرا فى ضوء النهار عما كانا عليه فى ظلام الليل . أما النجوم فقد حجبتها الشمس ، وأما عزمه فقد كان يرى شبحه فى ضوء النهار كما يراه فى حجب الدجى ، لذلك امتطى صهوة حصانه بعد أن تناول طعام الإفطار وأخذ يطوف مع رئيس عماله . وعند الظهيرة تناول وجبة الغداء ثم جلس يقرأ كتاب « تكديدس » عن « الطاعون فى أثينا » وفى المساء وضع بعض مذكرات عن الملاريا فى جنوب إيطاليا . وعند ما شرع فى خلع ملابسه تذكر أن هناك قصة طريفة فى كتاب « إسكلتولد » عن الوباء الأسود ، فعزم على أن يكتب عنها فصلاً إن عثر على قلم رصاص

مرت خمسة أيام من حياته الجديدة ؛ وفى اليوم السادس عثر هتن بين خطاباته على رسالة قد كتب عنوانها بخط بين بين ، عرف منه أنه من لدن « دوريس » ففضه وشرع يتلوه ، فوجد كلمات لا ترمى إلى جمع واحد ، إلاّ أنه استشف من قولها وجود حالة تشبه الحال التى ماتت بها زوجته ، فكان فى ذلك ما أزعجه ، وحدا به إلى التنهد ؛ غير أنه تمالك شعوره ، واستعاد إحساسه ، وتابع قراءته ، وهذا نص رسالتها :

« أجل ! إن الموت شىء مرعب ، غير أنى لا أفكر فيه ما دمت منه بنجوة . أما إذا حل مثل ذلك الأمر ، أو ألم بى مرض ، أو أحاط بى كدر ، فترانى لا أتمالك نفسي من التفكير فيه كأنه قريب منى ، وأستعيد فى خيالى كل ما قدّمت يداى من إثم كما أفكر فى نفسى ونفسك ، ويأخذنى القلق من جراء ما سيحدث فى المستقبل ، فيدركنى الخوف والاضطراب . لقد أزعجتنى الوحدة واستوحشت منى السعادة ، وحرمتُ فيما أعمل وجثم خيال الموت يهددنى فلا أستطيع منه خلاصاً ، وأرانى بغيرك تعيسة شقية . انظر كيف أعجز عن التعبير عما أريد اخبارك به . أريد أن أراك إثر تلاوتك هذه الرسالة وعقب فراغك من مراسيم الحزن . إن سعادتى فى قربك ؛ وليس لى فى الدنيا أنيسٌ سواك يا كريم الطباع ، وأخا النجدة والغوث . ولست بناسية ما حييت عطفك وحدبك . إنى لتأخذنى الدهشة كيف تنزلت من عليائك فحببتنى لطفك وأنسك مع ما أنا عليه من كآبة وغباء كانا سبباً فى ضعف حبك لى . أليس كذلك ؟ »

تأثر هتن من كتابها تأثيراً ألبسه ثوباً من الحياء والرحمة ، واستكثر من نفسه أن يمدحه أو يعبده كائن ما . يا لله .. ! لقد أغرى دوريس فوقعت فى حبائله ... إنها طرفة من طرف اللعب الجنونى ! ! بل طرفة من الجهل لا يستطاع وصفها !

فرغ « هتن » من قراءة كتاب دوريس ، فإذا الجزع أقوى فى نفسه من السرور . لقد خلا عمله من الحكمة وسداد الرأى

وكثيراً ما كانت تسيطر عليه رغبات وشهوات مبهمة يكاد يخضع لها ، وإذ ذاك يذكر نفسه في تأنيب أنه على وشك العودة مرة أخرى إلى غبائه القديم ، ويذكرها أيضاً بوجود كثيرات أمثال « ماجى » خادمة زوجته ، وأزيث ، ومسز برنجل ، وغيرهن من الوصيفات فى لندن وغيرها ؛ غير أنهن جميعاً — وا أسفاه — قد أدركهن الكبر ، ووسمهن الهزال بميسمه . ومن يدرى فلربما يأتى عليه وقت يدركه ما أدركهن ، بيد أن كل هذه التجارب لم تؤثر فيه شيئاً

عاد هتن فتذكر « دوريس » المسكينة ، وكأن نفسه ضجت من تلك الخدائع التي يموّه بها على النساء ، وعافت الخديعة باسم الحب والهوى ، فعزم على أن يكتب إليها كتابة ملؤها العطف والرحمة ، دون أن يعدها بالحضور ، ولكن الخادم قطع عليه سلسلة تفكيره ، إذ جاء يخبره بأنه قد أسرج الحصان ، فنهض وركب وذهب مع رئيس عماله الذى كانت أمارات الكآبة متجلية على محياه ذلك اليوم

مرت خمسة أيام شوهد إثرها « هتن » ودوريس جالسين على مقعد حجرى فى « سوث إند » وكانت دوريس ترتدى قميصاً حريرياً مطرّزاً بأشرطة حمراء يعلو وجهها البشر والسرور ؛ وكانت رِجْلاَ هتن ممتدتين إلى الخارج ، معتمدتين على كرسى ، وقد أزاح القبعة إلى الخلف ... وفى تلك الليلة بينما كانت دوريس نائمة بجواره ناعمة بالدفء والراحة وقد سرت أنفاسهما هادئة تهوّم فوقهما كأنها تحرسهما ، إذ تملكه فى هذه الساعة — ساعة الظلمة والتعب — ذلك الوازع الذى تملكه من نصف شهر تقريباً ، حينما أخذ على نفسه ما لم ينفذه ، وما ذهب كما ذهب أخ له من قبل ، وهكذا تغلب الشر على الخير ، والجهل على العقل ، إذ خارت عزيمته عن تنفيذ أول خطوة من المبدأ الذى رسمه لنفسه

قضى هتن فترة طويلة من الوقت مغمضاً عينيه كالنائم يعالج خنوعه أمام داعى الخيبة حتى تحركت دوريس فى فراشها فالتفت إليها ، وقد تسرب من خلال الستارة الرقيقة الشفافة نور خفيف أظهر ذراعها العارية البضة وكتفها الجميل ، ورقبتها وجدائل شعرها الحالكة السواد ملقاة على الوسادة ، فتجلى فيها مثال من الجمال العبقرى خليق أن يشتهى ، وتراءى جمالها الساحر يغرى ظمأه ، فعلام يشكو هتن ، وقد رقدت بجانبه تلك الفتنة ؟ وما الذى تفيده وقد ضاع الأمل فى أن يكفكف من حدّة مجونه ، أليس الأولى أن يستفيد من ضياع ميثاقه وعهده ؟

وإذ ذاك تسربت إلى نفسه فكرة براقة يحدوها الشباب الجامح ، فكرة لا تأبه بالعواقب ، ملأت عليه جميع أرجاء نفسه ، وخيلت إليه أنه حرٌّ يفعل ما يشاء

وفى لحظة أسلم فيها قياده للشباب جذب الفتاة نحوه ليروى نفسه من نبع ذلك الجمال ، فانتبهت « دوريس » مذعورة ، وأفاقت على سيل قبلاته الحارّة التى أودع فيها روحه الفتية وعواطفه الملتهبة !!

تحولت عاصفة رغبته إلى نوع من المرح ، وكأن الجو والعالم وكل شىء كان يشاركه فى ضحكه الهادئ !

تلقت أذنا هتن سؤالاً عذباً من دنيا الحب النائية يسأله :

— ترى هل أحبك شخص مثل حبى إياك ؟

— أظن أن هناك من سألنى هذا السؤال قبلك !

— ومن ذاك ؟ أخبرنى ! ومن تعنيه بقولك ؟

وكان الصوت صوت (دوريس) وقد اختلجت نبراته بالغضب ، فقال هتن متنهداً :

— آه !

— من ذاك ؟ أخبرنى !

— لا تذهبى بعيداً مع الظنون ... هى جانيت اسبنس

— (فى دهشة) جانيت اسبنس ؟ تلك المرأة العجوز ؟ يا للعار !

فضحك منها هتن بملء فيه ثم قال :

— إن ما أقوله هو الحق ، وإنها لتحبني حبًّا جمًّا

وأكد لدوريس أن لا بد له من أن يزورها وأضاف إلى ذلك قوله :

— وأعتقد أنها تبغي الاقتران بي !!

— لكني لا أراك فاعلاً ولا عازماً !

فعاد هتن إلى الضحك وقال وقد خيل إليه أنه يقول أحسن نكتة قالها :

— أود أن تكوني زوجتي !

ولم يغادر « هتن » فندق « سوت إند » حتى كان قد تزوج مرة أخرى ، لكنهما اتفقا على أن يكون أمر هذا الزواج سرًّا حتى إذا حلّ الخريف وذهبا إلى الخارج ، شاع الأمر بين الناس ثم أردف ذلك بقوله :

— أما الآن فسأذهب إلى منزلي كما تمضين أنت إلى منزلك

* * *

وفي مساء اليوم التالي مضى هتن لزيارة جانييت اسبنس فاستقبلته ببسمتها القديمة بسمة الجيوكوندا ثم قالت :

— لقد كنت متعطشة إلى لقائك

وما كنت لأستطيع الصبر عن لقائك

ثم جلسا في البيت الصيفي الجميل الذي كان فيما مضى معبداً قائماً وسط أحراج كثيفة خضراء فقال هتن يجاذبها أطراف الحديث :

— لقد عزمت أن أسافر إلى إيطاليا هذا الخريف

فقالت جانييت ، وقد أغمضت عينيها في إغراء كأنها في نشوة الخمر وقالت :

— إيطاليا ! إيطاليا ! لقد وافق عزمك ما جمعتُ عليه نيتي

— ولماذا تريدين الذهاب ؟

— مالي غرض خاص ، إنما قد يفقد المرء نشاطه أحياناً إذا أراد السفر إلى الخارج وحده لأول مرة

— أف للوحدة ! ليس في سفر الانسان مفرداً أية لذة

واضطجعت جانييت في مقعدها صامتة ، مسبلة الأجفان ، وأخذ (هتن) يمسح شاربه ، وطال الصمت بينهما ، وحان وقت الغداء ، ودُعِيَ هتن إلى تناوله فلبى على عجل ، وابتدأ حبل المزاح يزداد قوة بينهما ، ووضعت المائدة في الشرفة ، وأخذا يطلان من خلال أقواسها على الحديقة الممتدة إلى الوادي المنخفض والتلال البعيدة ، ثم فاض النور ، وعمّ السكون ، واشتدّت الحرارة وحلّقت غمامة في الأفق ، وهدرت أصوات الرعد من بُعد وهي آخذة في الاقتراب ، وعب عباب الريح ، وتكاثف الرذاذ المتساقط منبئاً بالمطر وأخذت العتمة تغمر الكون ، وإذ ذاك صمت كل من جانييت وهتن ، ولكنها قطعت هذا الصمت بقولها :

— أظن أن لكل امرىء حقاً محدوداً من السعادة ؟ أليس كذلك ؟

— لا شك في هذا ، لكن ما الغاية التي تقفو أثرها ؟ ليس في استطاعة أحد أن يدلي بآراء قاطعة عن الحياة ، إلا إذا أراد أن يتكلم عن نفسه ، أما السعادة ...

ثم توقف عن الكلام فجأة ، إذ عاد بفكره إلى

سابق حياته يستعرضها ، ورأى تلك اللحظات التي كانت مفعمة بالسعادة والهدوء الذى لم يكن ينغصه عليه سوى سحاب جهام من الأحزان لا يلبث أن يتلاشى ... لقد كانت الأموال شيئاً عادياً . لقد كان أسعد حظاً من غيره من بنى جنسه . أما الآن فقدْ فقدَ السعادة فحسب ، وعرف أن عدم الاكتراث سر الابتهاج . وكان فى نيته أن يقول شيئاً عن سعادته لولا أن قاطعته جانييت بقولها :

— إن مثلى ومثلك خليقان أن ينالا حظاً من السعادة وقتاً ما من حياتهما

— أمثلى أنا ؟

— آه يا هنرى المسكين ! إن القدر لم يعامل أحداً منا بما يرضيه

— ها أنت ذا مسرورة وذلك من شجاعتك ، لكن لا تظنى أنى لا أستشف ما وراء القناع

ثم تكلمت جانييت اسبنس بصوت أخذ يزداد ارتفاعاً كلما ازداد المطر انهماراً ، كما أخذ الرعد يتقطع فى فترات بين حديثها فقال لها هنرى :

— لقد عرفتك جيداً منذ زمن طويل

إذ ذاك طافت بها بارقة من الأمل المعسول ، فاذا بنفسها قد امتلأت بالأفكار وحفزها العزم على أن تقول شيئاً ، وقد اتكأت بصدرها عليه وحدقت عيناها ، كأنهما رصاصتان ثم طواها الظلام فى غمراته فقالت :

لقد أصبحت وحيداً نفتش لك عن رفيق ، وإنى خليقة بالشفقة عليك فى وحدتك ، بل فى زواجك ...

ولكن الرعد قطع عليها حديثها ، ثم عاد صوتها إلى الظهور مرة أخرى بهذه الكلمات :

— إنك فى حاجة إلى رفيقة

فردّد قائلاً : رفيقة لى ؟ ما أبعد ذلك عن الدعابة ! چورچيت لبلان رفيقة «موريس ماترلنك» السابقة ...

على هذا النحو صورته جانييت اسبنس فى خيالها أى أنه رفيق الروح . أما دوريس فقد مثلته برمز الكمال وأنه أكثر الناس مهارة ، ثم قالت جانييت وقد اعتمدت بيديها على ركبتيه :

— لقد طار إليك قلبى مرفرفاً وفى وسعى أن أعرف السبب ؛ لقد أصبحت وحيدة مثلك ، فما أصبرك ؟ !

ثم مرت عليها بارقة أخرى فإذا بها مضطربة النفس إلى درجة ألجأتها إلى أن تقول :

— ما أراك تشتكى وأغلب ظنى أنك تشكو !

— ما أعجب أمرك !

زمجر الرعد ثانية ، وانهمر المطر فى شدة كأنه قهقهة المجنون فقالت جانييت :

— أما تحس فى أعماق نفسك بشىء له صلة ما بتلك العاصفة ؟

ثم اتكأت على صدره بجسمها اللدن وتابعت حديثها قائلة :

— إن الهوى يصيّر الإنسان أشبه بالعناصر الفعالة ...

فلم يحر جواباً وظل كالمشدوه ثم قال : نعم !

ثم استولى عليه الخوف على غرّته ، وتحوّل ما فيه من جرأة إلى سكون وذهول . لقد أرعبته جرأتها وصراحتها المتناهية ، أما هو فقد قال :

— الميل والهوى ؟ إننى لا أخلو منهما

بيد أنها تصنعت عدم الإصغاء إلى حديثه ،

وأخذت تتثر فى الحديث الذى لم يكن يسمعه أحد إلا وهو يعتقد أن الحب العنيف هو الذى ينطقها ثم همست قائلة :

— لعله لم يفهم مغزى ما أقول !

ومن ثم أخذت تسرد على مسامعه قصة حياتها فى هدوء حتى يستطيع أن يفهم ما تقول ، وفى هذه الحال أخذت فترات انقطاع البرق تطول ، وتزداد تبعاً لذلك مدة الظلام ، غير أنه كان يراها تحملق فيه بقوة متجهة بصدرها إليه مما يدعو إلى الريبة ويطل من عينيها بريق التمنى والإغراء ، وانهمر المطر أكثر من ذى قبل فالتصقت به . وأبرق البرق فرأى « هتن » وجهها يعلوه قناع جميل تترجرج من تحته عينان واسعتان ، وفم صغير جميل ، وحاجبان عريضان ، فكانت أشبه بالرومانيات ، ولكن ما أشبهها بجورج روبى !

عرف هتن حينذاك ما ترمى إليه فأراد أن ينقذ نفسه منها ، وفكر فى مهرب يتخلص به من هذا المأزق الحرج . أيدعى أنه رأى لصاً ثم يناديه أن قف ويقفز ويعدو خلف شبحه الموهوم ؟ أم يدعى أنه أصيب بخفقان فى قلبه ؟ أم يدعى أنه لمح شبحاً وليكن شبح إميلى فى الحديقة يخطر فى حلوكة الليل ؟ وشغله التفكير فى هذه الأمور الصبيانية عن الالتفات إلى جانيت وحديثها ولم يرده إلى عالم الحقيقة إلا مسة رقيقة من يدها ، ثم قالت :

— إنى أجلك من أجل ذلك يا هتن

فقال فى سريرته : ومن أجل أى شىء تجلّنى ؟

فقالت : إن الزواج رباط مقدس ، واحترامك إياه — برغم سوء حياتك الزوجية السابقة — يجعلنى أحترمك وأعجب بك . والآن أتسمح لى أن أقول كلمة ياهتن ؟

وعاد هنرى يفكر فى مسألة اللص الموهوم والشبح ، ولكنه وجد أن ذلك قد تأخر وقته ، فعادت هى تتابع قولها :

— نعم ، كلمة واحدة ، تلك هي إننى «أحبك» وها نحن الآن فى أتم الحرية !

— وما شأن هذه الحرية ؟

وحدثت حركة فى الظلام ، فاذا بجانيت تخر راكعة بجانب كرسيه ثم تقول :

— لقد استوحشت منى السعادة أنا الأخرى يا هنرى !

وإذا بها تعانقه فى لهفة ، وإذا به يحس من حركاتها أنها تتنهد ، فأحس بالحرارة تسرى فى جسده ، وخيل إليه أنه لولا بقية من الخجل لصاحت : « الرحمة » ، وتصنع الجد ، فقال :

— عليك أن تمتنعى عن هذا ياجانيت ، فليس هذا وقته . فلتهدأ عواطفك ، ولتمضى إلى فراشك

ثم أخذ يربت بيده على كتفها ، وتخلص من بين يديها ، وتركها جاثمة على الأرض تندب حظها بجانب الكرسى الذي كان جالساً عليه . فأخذ يتحسس طريقه وسط البهو ، غير متذكر قبعته التى خلفها ، ثم غادر المنزل معملا فكره فى أن يقفل الباب الخارجى دون حدوث أى صوت . كانت السماء إذ ذاك قد انجلى عنها الغمام ؛ غير أن الطريق كان مترعاً بالماء ؛ وكان يرن فى هذا السكون صوت المياه المتدفقة من الميازيب ، والمنحدرة إلى الحفر ، فأخذت قدما هنرى تترديان فى تلك البرك التى لم يأبه لها

أما جانييت فما كان أشد بلواها ! لقد كانت الحسرة تطل من عينيها ، ويجثم الأسى على أنفاسها . لقد فكرت فى أن تنتقم لنفسها ، وويل للرجل إذا فكرت المرأة فى الانتقام منه !

* * *

لنرجع إلى ماقالته جانييت بشأن الهوى والميل . لم يكن هذا سوى قصة قديمة منبوذة ، ولكنها كانت حقيقة ملموسة . لقد كانت أشبه بسحابة سوداء مشحونة برعود الكهرباء ، أما هو فكان أشبه ببنيامين فرانكلين إذ أرسل طيارته إلى صدر ذلك الوعيد ، ثم هاهو ذا الآن يشكو ، وقد نجحت أعوبته

كل ذلك وما زالت المسكينة خاشعة قابعة بجانب المقعد . تُرى ما الذى أزعجه ؟ ولم لم يتابع مداعبته ؟ لماذا تخلى عنه « عدم الاكتراث » وما الذى رده عاقلا في طرفة عين ؟ يتحمل زمهرير الجو بلا ضجر ولا تأفف ؟ أما هو فلم يكن ليعرف لهذه الأسئلة من جواب ، ولم يعد يرى فى فكره سوى فكرة الفرار ، وكان تنفيذها شاغله الوحيد

— ٤ —

سألت دوريس هتن قائلة :

— ما الذي يشغلك ؟

— لا شيء !

ثم ساد سكون ظل خلاله هتن لا يتحرك ، متكئاً برفقة على سياج الردهة ومعتمداً بذقنه على يده ، ومطلا ببصره يشاهد فلورنسا التى اختار فيها سكنه على رابية فى جنوبها يستطيع المرء منها أن يسرح طرفه فى واد خصب يمتد في المدينة حتى يصل جبال « مورلو » الباردة ، ثم يمتد شرقيها إلى تلال « فيزول » الآهلة بالسكان ، ذات المنازل البيضاء ، حيث يبدو كل شيء واضحاً نيراً فى ضياء شمس سبتمبر

سألته دوريس قائلة : أثم ما يشغل بالك من أمر جدّى يا هتن ؟

— شكراً لكِ ، لا يهمنى شيء !

— أفصح وأخبرنى

— ليس عندى ما أخبرك به يا عزيزتى

ثم استدار ناحيتها مبتسماً وأخذ يربت على كتفها قائلا :

— أولى بك أن تأوى إلى فراشك فإنى أخاف عليك حرّ هذا المكان

— حسن ما تقول ، ولكن هلا تذهب أنت أيضاً إلى الفراش ؟

— حينما أفرغ من مضغ هذه اللفافة

— لك ما شئت ، ولكن أرجو أن تسرع

ثم أخذت تنحدر من على الدرج ببطء وتراخ واتجهت إلى الداخل . وهكذا ظل هتن وحده يتأمل جمال فلورنسا شاكراً للظروف تلك الوحدة التى كان يتمناها للخلاص من دوريس ورغبات هواها الجامح ، التى لا تعرف حداً ولا شبعاً . لم يذق « هتن » حتى هذه الساعة آلام الحبّ وطاغوته ، ولكنه يجرّب آلام المحبوب المطلوب ، وبذلك كانت هذه الأسابيع الأخيرة فترة المتاعب ، حيث

ظلت «دوريس» ملازمة له كالرقيب ، لذلك ما كان أعظم فرحه بالوحدة الهادئة

انتزع هتن من جيبه رسالة وفضها على مضض ، فقد أصبح يمقت الخطابات لما تحويه دائماً من أخبار غير سارة ، خصوصاً عقب زواجه الثانى . كان هذا الخطاب من لدن أخته ، فأخذ يرغى ويزبد عند تلاوته وقراءة مثل هذه العبارات « بسرعة ، الظالمة الطائشة ، الانتحار الاجتماعى — شديدة البرد فى قبرها — شخص من الطبقة الدنيا » كل ذلك كان يأتيه تباعاً فى كل رسالة يرسلها إليه قريب صادق النصيحة والود ، صافى التفكير . أحرجت هذه الكلمات صدره حتى كاد يهم بتمزيق الرسالة لولا عبارة لمحها فى ذيل الصفحة الثالثة ، اضطرب قلبه عند قراءتها إذ كانت مزعجة مثيرة للنفس الهادئة وهى أن جانييت أخذت تطوف على كل إنسان تخبره أن هتن قد دسّ السم لزوجته إميلى حتى يخلو له الجو ، فيبنى بدوريس . فما أشنع هذا الحقد من رجل متواضع لطيف الأخلاق كما كان يدل عليه مظهره . ومن أجل ذلك غدت نفس هتن كالمرجل من الغيظ فشرع يتسلى بذكر الأسماء وسبّ تلك المرأة

وفجأة رأى سخرية موقفه فقال على حدة : « لو علم الناس مبلغ ما تحملت وما آل إليه أمرى من البؤس لما صدّق أحد فكرة دسّ السم لزوجتى لأحظى بدوريس . ولكن ما الذى نالته من ذلك جانييت العزيزة المسكينة . لقد أرادت أن تلبس ثوب الحقد فلم تفز إلا بثوب الغباء ! »

أفاق هتن من أفكاره المتشعبة على وقع أقدام ، فالتفت حوله فإذا بالخادمة فى الحديقة تقطف بعض الفاكهة ، وكانت شابة من نابلى شرد عقلها فأخذت طريقها نحو الشمال حتى وصلت فلورنسا . ويلوح عليها أنها من الطبقة المتعلمة وإن فسدت أخلاقها كما تدل سحنتها على أنها من الطابع الصقلى ، وقد ارتسمت على وجهها دلائل الغباء ، وليس بها من أثر للجمال ، إلا دلائل الشراسة المرذولة ؛ وتحت ثيابها السوداء الكثيفة تكمن هتن بوجود جسم قوى ممتلئ ثابت ، فأخذ ينظر إليها فى دهشة وريبة ، ثم تحولت تلك الدهشة إلى رغبة ، ثم أصبح ذكرها لديه كشعر ثيوكريتوس القصصى حتى قال عنها : « هكذا تكون المرأة » غير أنه تأسف أن لم يكن من طبعه مناداتها ، وقد أصبح يعجب بها ، ولكنه صاح بها :

— أرميدا ! !

فأجابته بسمة جذابة أكدت ما وراءها من معنى ، فأدرك هتن الخوف من الوقوع مرة أخرى فى الهاوية ، فرأى من الخير أن يتراجع بسرعة قبل أن يتردّى فى الحفرة ، بيد أن الفتاة لم تزل تنظر إليه نظرات مبهمة ، ثم نادته قائلة :

— ها ! شيماتو ! !

فتعجب هتن ثم قال على حدة : أعقل أم غباوة ؟ لا رجحان لواحد منهما الآن . على أن الغباء لم يزل واضحاً ملموساً ! » ثم أجابها فى صوت مرتفع قائلاً :

— اسكندو !

ثم أخذ يَعُدُّ السلالم الموصلة من الربوة إلى الحديقة وهى نازلة بقوله : « إلى تحت .. إلى تحت .. إلى تحت ... » حتى أتى على الاثنتى عشرة درجة ،

وهكذا رأى هتن نفسه يخرج من غمّ إلى غم ومن ظلمة مملوءة بريح وبرد إلى هاوية مملوءة بوحل التفكير .

— ٥ —

شغلت قصة هتن الصفحة الأولى من الجرائد عدة أيام حتى بلغت من الشهرة مبلغاً لم تصل إليه قصة أخرى منذ أن غطى « جورج سمث » على حوادث الحرب الأوربية لإغراقه عروسه السابقة فى حمام ساخن . ولقد كان من جرّاء ذلك أن ثارت ضحكات الجمهور من أجل قصة قتل ظهرت فى الوجود بعد أشهر من وقوع الجريمة . وهنا يتجلى الشعور بأن هذه الحادثة جديرة بالاهتمام فى تاريخ الإنسانية لندرتها ، ولأنها تفصح عن تصاريف القدر فى تحريك أعنّة البشر . كان أسلوب القصة يقول إن رجلاً خبيثاً حركه هوى فاسد ، فقتل زوجته وقد قضى شهراً ملوثا بالجريمة تحت ثياب البراءة المزعومة ، لا لينجو ، بل ليقع أخيراً على أبشع صورة فى الحفرة التى أعدها لغيره . وها هى ذى الجريمة يتكشف عنها الستار ، ويماط عنها اللثام . وها هى ذى القضية تعلن ، وهكذا أخذ قراء الصحف يتتبعون بكل يقظة ما تجرى به يد القدر فى هذه الحادثة الغريبة

كانت هناك إشاعة مبهمة لكنها جديرة بالعناية رددتها أفواه جيرانه وقام البوليس أخيراً بضبط الحادث وإجراء اللازم ، كما أخذت ظروف القضية ترتيبها فى التحقيق ، ثم التحرى ، ثم شهادة الخبراء فالمرافعة فالحكم ، كأنها قصة روائية ، وقد استغلت الجرائد هذه الفرصة واتخذتها مادة لغذاء تغذى به قراءها مدة طويلة

كانت حالة هتن حينما دعى من إيطاليا للاستجواب أمام هيئة التحقيق حالة غضب ، وما كان أعظم شأن تلك الفرية المزعجة التى أدت إلى القبض عليه كأنه مجرم عاطل ، واعتزم إذا ما انتهى التحقيق — وكان واثقاً من براءته — أن يقدم دعوى أمام النائب العام طالباً الحكم على جانييت بأشد العقوبة جزاء لها على تلك الحادثة الكاذبة

بدئ التحقيق وأطلت الدلائل القوية ضده برأسها ، وبحث الخبراء الجثة فوجدوها مسممة بالزرنيخ ، وهكذا أخذ قراء الصحف يتتبعون كل لفظة مما تحويه الحادثة ، كما كان القرار الأخير للخبراء أنها ماتت بالسم

بهت هتن لسماع هذا القرار وتعجب كيف ماتت زوجته على هذه الحال . بل ما كان أشد دهشته حينما علم أن هناك مستحضرات ممزوجة بهذا السم فى البيت تكفى لقتل جيش

علم هتن على أثر ذلك أن هناك مكيدة دبرت ضده ، وأنها آخذة فى التعاظم كنبات من نباتات المنطقة الحارة ، ثم أخذت تشتمل وتضيق عليه حتى خيل إليه أنه سيهلك فى غابة ملتفة . وبعد فحص حالة التسمم قرر الخبراء أنها تناولته قبيل الموت بثمانى أو تسع ساعات (أى حالما مضى هتن ليحضر الدواء وحينما أفرغت جانييت القهوة) لذلك وجهت جانييت هذا السؤال إلى الخبراء :

— أتقصدون وقت الغداء ؟

— أجل !

فاستدعت كلارا ثم قالت جانيت

— إن إميلى كما أذكر طلبت من (كلارا) أن تحضر لها الدواء فتطوع هتن لاحضاره بدل الخادمة وأكدت الخادمة قول سيدتها فعادت مس اسبنس تقول :

— وفضلا عن ذلك لم يحضر الدواء فى زجاجته بل أحضره فى زجاجة خمر .

أثر ذلك القول فى نفس هتن فضاع غضبه وأنزله عن عرش كبريائه خوفاً وفزعاً ، وغلب على ظنه أن من السخرية أن يؤخذ هذا القول كله على سبيل الجد ، وأن يصبح حلم الليل حقيقة ، بل قد أصبح فى حكم الواقع ثبوته ، ولم لا يكون ذلك وقد رآها السائق « ناب » غالباً معاً ، بل قد ساق العربة يوم ماتت إميلى ، بل قد رآها يتبادلان العتاب

أجل التحقيق . وفى مساء ذلك اليوم ذهبت دوريس تشكو صداعاً ، ولما ذهب هتن إلى غرفتها بعد الغداء وجدها تصيح فجلس بجوارها على السرير ثم سألها قائلاً :

— ما الذي ألم بك يا عزيزتى ؟

ثم أخذ يداعب خصلات شعرها بيده ، غير أنها لبثت وقتاً طويلاً دون أن تجيبه ، فمال عليها وقبلها فى كتفها العارى ، بيد أنه كان مهموماً بما شغل باله فأخذ يقول على حدة : « ماذا تم ، وكيف انقلب الهذر والفضول إلى حقيقة . كيف ماتت إميلى مسممة بالزرنيخ ؟ ما أقبح ذلك وأبعده عن الامكان ؟ لقد انحرفت نظم الحياة ! » وطفق يستدر الرحمة من الطيش وعدم الاكتراث ثم يقول : « ماالذى حدث وماذا سيحدث ؟ » وسمع صوتاً قطع عليه سلسلة تفكيره وحديثه النفسانى . تأوهت دوريس فجأة وهى تقول :

— إنها خطيئتى ... إنها خطيئتي ... ليتنى لم أحبك ولم أسمح لك بحبي بل ليتنى لم أخلق

لم ينبس هتن ببنت شفة لكنه أخذ ينظر في سكون إلى ذلك الجسد الرطب المتمدد على الفراش ، ثم قالت دوريس :

— لأقتلن نفسى إن أصابك شيء ما !

ثم اعتدلت فى جلستها وأخذت يديه في راحتيها ونظرت إليه نظرات شاردة كأنها نظرات الوداع ثم قالت :

— إنى أحبك ! إنى أحبك ! إنى أحبك !

وجذبته إليها وهو مستسلم لا يتحرك ، وعانقته ثم دفعت نفسها إليه فى قوة ، وقالت :

— آه يا هتن ! لا أظننى أحببتك مثلما أحبك الآن فما العلة ؟

تخلص هتن من عناقها ونهض قائماً محمر الوجه قائلاً :

— كأنك تصدقين أنى قتلت زوجتى ، إن ذلك لمضحك حقاً ، فأى صورة تتمثلها الأذهان جميعاً لشخصى ؟ أتظنوننى بطلا من أبطال السينما ؟

ومنذ ذلك الوقت بدأ هتن يشعر بفقد اعتداله الخلقى وتحول حنقه وخوفه وارتباكه إلى غضب شديد عليها وقال :

— ما أقبح ما أنتن عليه من غباوة مرذولة ! أما عندكن إحساس بما يلائم عقلية الرجل المتمدن ؟ أما من سبيل إلى ذلك ؟ لعلك تظنين أنى قد جننت بحبك جنوناً يحملنى على ارتكاب أية

جريمة ؟ متى يجوز فى عقولكن أيتها النساء أن المرء لا يذهب فى حبكن مذهب الجنون ؟ كل ما يبحث عنه الإنسان هو الحياة الهادئة التى لا تسمح لأحد ببلوغها . فمن لى بمعرفة ذلك الشيطان الذى قادنى إلى زواجك الذى لا أحسبه إلا ضرباً من الغباء . ثم أراك الآن تحومين حولى قائلة إننى القاتل . مالى على حمل ذلك صبر ولا جلد »

ثم انطلق نحو الباب مطلقاً لسانه بكلمات مزعجة ما كان له أن يتسرع بالتلفظ بها كما يعلم ، لكنه لم يتمالك نفسه ، ثم أغلق الباب بشدة خلفه

سمع هتن عند إغلاقه الباب صوتاً يناديه ، فعرف فى الصوت « دوريس » زوجته وسمع صوتها تتخلله نبرات الحزن والأسى ، فهل يا ترى يرجع إليها ؟ نعم حق عليه أن يرجع . وما إن مس مقبض الباب بيده حتى تغير رأيه ونزع يده بشدة وانصرف لسبيله ، ولما نزل إلى منتصف السلم توقف ودار بخاطره أن ربما أقدمت دوريس على مالا تحمد عقباه ، فتلقى بنفسها من النافذة ، أو شىء من هذا القبيل ، فأصغى باهتمام فلم يسمع صوتاً ، لكن كثر حدسه وتخمينه ، فتصورها وقد رفعت مصراع الشباك ، ثم إذا بها تطل فى هواء الليل البارد بينما يتساقط رذاذ قليل ... كانت الردهة المرصوفة تقع تحت هذه النافذة على بعد خمس وعشرين أو ثلاثين قدماً ، وفى أثناء سيره فى شارع « پيكادلى » قفز كلب فجأة من شباك فى الطابق الثالث من عمارة « رتز » رآه هتن وهو يقفز وسمعه وهو يرتطم بالأرض ، فتذكر دوريس وخشى أن يكون هذا نذيراً سيئاً ، أو أن تكون قد ألقت بنفسها ، فجمع العزم على أن يرجع إليها مهما كلفه ذلك من نزوله عن كبريائه . ولقد كان يستعجل الخطى ليراها ، فلما دخل البيت وقف متردداً يفكر فى ألفاظه التى فاه بها أمامها مخافة أن يكون قد جرح شعورها ، أو آلمها ؛ وشعر بالندم يحز فى نفسه ، ويهيمن على إحساسه

دفع الباب ودخل الحجرة فوجدها مستلقية على الفراش مهمومة ، فما رأته حتى تبسمت بسمة تمثلت فيها دلائل الإخلاص والحب الذى ينطوى عليه فؤادها له ، وما تشعر به نحوه من عطف ، فأقبل يداعبها ويستسمحها عما بدر منه

* * *

أخذت قضية مستر هتن دوراً خطيراً ، وأجمع الخبراء والأطباء رأيهم على أنها ماتت مسممة بالزرنيخ كما اجتمعت القرائن والدلائل على أن مستر هتن هو الذى دس لها السم ليتخلص منها ويتزوج دوريس . وكان العامل الأكبر فى إثبات التهمة عليه هو حبيبته السابقة جانييت اسبنس التى دبت الغيرة فى قلبها حينما تخلى عنها وتزوج دوريس ، فدبرت هذه المكيدة ، على حين كانت تريد هى أن تكون زوجته ، وكاد أملها أن يتجمع فى الاقتران به ، ولكنه تركها إلى دوريس ، فلا جرم أن أحست بالغيرة تقطع أوصالها فدبرت ما دبرت

وفى ليلة الحكم عادت جانييت اسبنس إلى منزلها وهى لا تدرى أيسرها هذا أم يسوؤها ، فنامت على أسوأ حال من سوء الهضم ، وأخذ الطبيب لبارد يتردد كل يوم لعيادتها ، أما هى فقد كانت تخوض معه فى الحديث حول قضية مستر « هتن » الذى

كان زواجه سبباً فى إغلاء مراجل حقدها ، حتى أنها كانت تقول للدكتور « لبارد » فى دهشة تتجلى فى عينيها :

أليس من العار أن تذكر أن شخصاً كان يُؤوى قاتلا فى بيته ؟ أليس فوق التصور أن يظل الانسان جاهلا حقيقة أخلاق إنسان آخر زمناً طويلا ؟

هكذا كانت تقول للدكتور لبارد بينما كانت هى التى دست السم لإميلى وقادتها الغيرة العمياء لأن تزج بهتن أمام ساحة القضاء لتلوث سمعته وشرفه ، ولكنها كانت تعشقه . وقالت :

— ها هى الفتاة التى فرّ بها من طبقة وضيعة لا تزيد على كونها أمةً مباعة . وها هى ذى الأخبار ترِدُ بأن زوجته الثانية تستقبل طفلا جديداً سيكون يتيما ، إذ يولد بعد موت هذا الوالد الأثيم

وكان هذا الطفل يحرج صدرها ويؤذيها وكان الطبيب لبارد ينصت إلى كل ذلك صامتاً ، ولكنه فى آخر مرة زارها وبعد أن سمع ما قالت ، أمسك بيده القلم ، وكتب لها اسم دواء

وفى ذلك الصباح قاطعها أثناء حديثها الذى تعود أن يسمعه من سباب ثم قال لها بلهجته الحزينة وصوته المنخفض

— على كل حال فإنى أفرض أنك التى دسست السم لزوجة هتن ؟

فحدجته جانيت برهة بعينين متقدتين ثم قالت بلطف :

— أجل فعلت ذلك !

— وربما كان ذلك فى القهوة ؟

فأشارت إليه بالإيجاب

وحينذاك تناول الطبيب القلم ، وبمهارة وحذق ورزانة كتب لها تذكرة طبية باسم دواء منوم

مس مبنى

كتاب صحى مجاناً

الآلة البشرية وما يجب أن تعرفه عنها . العقل والجسد . العقل الباطن . الغدد . أسباب الأمراض العلاج بالعقاقير . التربية البدنية . الطب الطبيعى . التحليل النفسى . الأمراض المزمنة والعيوب الجسمية والاضطرابات العقلية وأعراضها وعلاجها . النحافة . السمنة . قصر القامة . ضعف الصدر . اعوجاج الأرجل والظهر . الكساح . ضعف الأعصاب . الروماتزم . سقوط الشعر . تجعدات الوجه . الربو . الامساك . الأرق . الخجل . الوهم الوسوسة .

١٠٠ صفحة مصورة ترسل إليك بدون أى مسئولية ولا مقابل وسوف تكون بداية حياة جديدة بالنسبة لك . أطلب نسختك اليوم الآن بالكتابة أو بالتليفون رقم ٤٤٩٠٣ أو بالحضور من

محمد فائق الجوهرى

أخصائى فى التربية البدنية والطب الطبيعي وعلم النفس

العيادة ٢٨ شارع فؤاد الأول من ١٠ — ١٢ ومن ٦ — ٨

تليفون ٤٤٩٠٣ أو ٥٠٣٥٩

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾